الحَارِثُ المُحَاسِبِيِّ
حَيَاتُهُ وآرَاؤُهُ الكَلامِيَّة

إعداد الأستاذ الدكتور

خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجاني

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة

جامعة الأزهر

الحَارِثُ المُحَاسِبِيّ حَيَاتُهُ وآرَاؤُهُ الكَلَامِيَّة

خلف عبد الحكيم خلف حسين الفِرْجَانِيّ

قسم العقيدة والفلسفة الإسلامية ـ كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة –جامعة الأزهر– مصر .

الإيميل الجامعى/ Kalefabdelhakeem.19@azhar.edu.eg

الملخص:

الإمام : أبو عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بنُ أَسَد المُحَاسِبِيُّ (ت٢٤٣هـ)، وهو أحد أعلام الصوفية المتقدمين، وله مجاهدات وكرَامَات، وغيرُ ذلك مما يعرض للصوفية الأتقياء الأنقياء، غير أنَّ هذا البحث سيأخذُك مع الحارث المحاسبى الى جانب آخر إنه مجال (علمِ الكلامِ) الذي يعالجُ مَسَائلَ العَقِيدَةِ الإسلَامِيَّةِ اسْتِدلَالاً عليها، ودِفَاعًا عنها، فليس هناك خصومة بين التصوف ودراسة العقيدة؛ ولذا حاولت أن أبرزَ هذا الجانبَ المهم عند المحاسبى في هذا البحث، وسَمَّيتُه: (الحَارِثُ المُحَاسِبِيّ حَيَاتُهُ وآرَاؤُهُ الكَلَامِيَّة) وقسمتُه الى: مقدمة وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهرس للمراجع وللموضوعات،

وقد تناولت في الفَصْلُ الأَوَّلُ: الحديث عن حَيَاة الحَارِثِ المُحَاسِبِيّ، وتناولت في الفصل الثانى: بيان آراء الحَارِثِ المُحَاسِبِيّ الكَلامِيَّةْ ورتبتها على النسق المعهود في كتب علم الكلام فجاءت في ثلاثة مباحث، تناولت في أولها: آرَاءَهُ في مَسَائلِ الإِلَهِيَّات، ثم تناولت ثانيًا: آرَاءَهُ في مَسَائلِ النُبوات والسَمْعِيات، وكان آخرها آرَاؤهُ في: مَسَائلَ عَامَّةٍ مُتَفَرِّقَة، وقد بلغت هذه المسائل نحو: خمس وخمسين مسألة تعبر عن آراء الحارث الكلامية.ثم ختمتُ البحث: بالإشارة إلى أهم النتائج، وأنهيتُه – بعون الله تعالى – بفهرس المصادِر، والموضوعات. وقد اتبَعتُ المنهجَ التحليلي، والتاريخي، وغيرَه بحسب ما تقْتَضيه الجُزئيةُ التي أتعَرَّضُ لبحثها.

الكلمات المفتاحية: الحارث– المحاسبي – حياة الحارث –اراء –كلامية –علم الكلام – الفرجانى– خلف – عبد الحكيم.

Al- Harith Al- Muhasibi his Life and his theological Views

By: Khalaf Abdelhakim Khalaf Hussein Alferjany
Department of Creed and Islamic Philosophy
Faculty of Azhari Women in New Minya
Azhar University, Egypt.
University Email/ Kalefabdelhakeem.19@azhar.edu.eg

Abstract

Imam Abu Abdullah Al- Harith Bin Assad Al- Muhasibi (died in 243 A.H.) is one of the forerunners of Sufism who had their diligences, dignities and else of what comes to the pious and pure Sufis. However, this research paper would address Al- Harith Al- Muhasibi from a different perspective, the field of (theology) which deals with issues of the Islamic belief, providing evidence and defending it since there is no conflict between Sufism and studying the Islamic creed. Therefore, this research paper has tried to highlight this important aspect for Al- Muhasibi and that is why it is entitled "Al- Muhasibi, his Life and his theological Views". The research is divided into an introduction, a preamble, two chapters, a conclusion, an index of references and themes. The first chapter displays the life of Al- Harith Al- Muhasibi whereas the second traces the theological views of Al- Harith Al- Muhasibi and organized them according to the common pattern in the books of theology. Hence, the third chapter contained three research requirements, the first discusses Al- Muhasibi's views regarding the theological issues while the second traces his views regarding the issues of prophecies and hearsay, and the third requirement is dedicated to general miscellaneous issues that counted around fifty- five and they expose the theological views of Al- Harith Al- Muhasibi. The research paper concluded with the most important findings, and then followed an index of references and themes. The researcher has followed the analytical and historical approaches according to the nature of each part of the research.

Key words: Al- Harith, Al- Muhasibi, the life of Al- Harith, views, theological, theology, al- Ferjany, Khalaf, Abdelhakim.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه، الحمدُ لله على نعمَةِ الإسلامِ وكفى بها نعمة، وأشهدُ ألّا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً ﷺ عبدُه ورسولُه، اللهم صَلِّ عليه، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وبارِك وسلم صلاةً ترضيك وتَرضَى بها عنّا، وعلى سائر التابعين بإحسان الى يوم الدين.

وبعد ،،،

فإنَّ الأمة الإسلامية تمتلك جَمًّا غفيراً من عُلمَائها الأفذَاذِ الذين خَلَّفوا لنا تراثها الزاخر المُشَرَّف، ولذا احتَفَى التاريخُ البشريُّ بهم؛ لِمَا قدموه من إسهَامَاتٍ أثْرَتْ الحضارةَ الإنسانية؛ فعطاؤهم الفكري عَلَّمَ العَالَمَ، فكانوا من أهمِّ ما تَجِبُ العنايةُ به، وصَرْفُ الهِمَّةِ إليه، ومن هؤلاءِ الأئمَّةِ الأعلامِ العَارفُ باللهِ: أبو عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بنُ أَسَدٍ المُحَاسِبِيُّ (ت٢٤٣هـ)، والغالبُ أنَّك عندَما تسمعُ اسمَه يجولُ في نفسِك إحسَاسٌ يبعثُ فيك راحةً نفسيَّةً؛ مَنْشَؤهَا ما تتذَكَّرُه من: صَفاء، وتهذيب وأخلاق، وعِبادات، وأحوالِ ومقاماتٍ، ومعرفَةٍ وكرَامَات، وغيرُ ذلك من سلوك الصوفيةِ الأتقياءِ الأنقياءِ العابدين المخلصين، غير أنَّ هذا البحث سيأخذُك مع الحارثِ المحاسبى -الإمام الموسوعي- الى جانبٍ آخرَ، وطريقٍ قد يبدوا -لأَوَّلِ وَهْلَةٍ- بعيداً عن التصوف، وقد تستغربُه أو تنكرُه في بَادِئَ الأمرِ، إنه طريقُ علمِ الكلامِ الذي يعالجُ مَسَائلَ العَقِيدَةِ الإسلَامِيَّةِ اسْتِدلَالاً لها، ودِفَاعًا عنها، وإنْ تَعْجَبْ فاعْلَمْ: أنَّ العقيدةَ هي الأساسُ الأوّلُ الذي يُبنَى عليه غيرُهُ من العبادات والمجاهدات الصُوفِيّة، والعقيدةُ هي أولُ ما يُنَبِّهُ عليه الصوفيّةُ، فمشايخُ الصوفيَّةِ يُوصُونَ المُريدين والسَالِكِين -في أولِ أمرِهم- الى ضَرورةِ تَصحيحِ العَقِيدةِ، ويعُدُّونَهَا أولَ الوَصَايَا وأهمَّهَا؛ لأنَّها الأساسُ الذي يُبنى عليه درجاتُ الصعودِ والتَرَقِي في مدارجِ الطريقِ الصوفِّ، لذا لم يكن غريبًا أنْ نجدَ الحارثَ المُحاسِبى شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ وأستاذ السائرين يهتمُ بأمورِ العقيدةِ ويعالجُ مسائلَهَا، فليس هناك خصومة بين التصوف ودراسة العقيدة. وإلى هذا يهدف هذا البحث.

وقد نالَ الجانبُ الصوفي والتربوي عند الحارثُ المحاسبيُّ عنايةَ الباحثين قبلي؛ باعتبارِهِ أحدَ أعلامِ الصوفيةِ في القرنِ الثالثِ الهجري، فتناوله العلماءُ المُحْدَثون من العَرَبِ، والغَرْبِ على السواءِ، ومن أوائلِ المؤلفين فيه حديثًا د/ عبد الحليم محمود، وتناولَه بعض المستشرقين أيضًا مع بداية عنايتهم بالتصوف مثل كنيكلسون، ورويتر، الأستاذ جوزيف فان إس حيث أعدَّ دراسةً عنه بالألمانية في بون ١٩٦١م.

ويمتازُ هذا البحثُ الذي بين يديك بأنه يُعدُّ من أوائلِ الأبحاثِ التي تتناولُ الحارثَ المحاسبيَّ أُصوليًا مُتَكَلِّمًا -إنْ لم يكُنْ أولَهَا بالفعل فيمَا أعلَمُ- كأحدِ أعلامِ المدرسةِ الكلابيَّةِ الكلاميَّةِ ومؤسِسِيها، والتي كانَ لها أثرُهَا الكبيرُ في الفِكرِ الكلامي الإسلامي. وترجعُ أهميةُ هذا البحثِ بعد التعريفِ بالحارثِ: إلى أنّه يجمعُ أراءَ الحَارثِ الكلاميَّةَ -التي قالَ بها، أو رُوِيَتْ عنه- في أكثرِ مسائلِ علمِ الكلامِ، بطريقةٍ موجَزةٍ، ولذا سَمَيتُهُ: (الحَارِثُ المُحَاسِبِيّ حَيَاتُهُ وآرَاؤُهُ الكَلَامِيَّة) -كما سَمَّيْتُ البَحْثَينِ السَابِقَين له عن ابنِ كُلَّاب، والقلانسي؛ لتَكتمِلَ -بحمدِ الله تعالى وعونِه- أبحَاثُ الأعلامِ الثَلاثَةِ الأوائل المؤسسين للمدرَسةِ الكُلَّابِيَّةِ الكلامية بوِحْدَةِ الاسمِ والمنهجِ والعَرْضِ- وكان منهجي في هذا البحثِ متعدداً، فقد اتبَعتُ المنهجَ التحليلي، والتاريخي، وغيرَه بحسب ما تقْتَضيه الجُزئيةُ التي أتعَرَّضُ لبحثها، وأمّا خُطَّةُ البحث قد جَاءتْ بعدَ هذِه المقدمةِ -التي بين يديك- في: فصلين، وخاتمةٍ، وفهرسٍ للمراجعِ، وللموضوعات.

- الفَصْلُ الأَوَّلُ في: حَيَاةِ الحَارِثِ المُحَاسِبِيّ.
- الفَصلُ الثَّاني في: آراءِ الحَارِثِ المُحَاسِبِيّ الكَلامِيَّةُ.

ثم جاءت الخاتمة مُشتملةً أهم النتائج، ثم انتهيت الى فهرسِ المراجع والموضوعات.

سـائلاً اللهَ العليَّ العظيم أنْ يجعلَ هذا العمل في ميزان حسـناتي يوم القيامة، وأنْ ينفع به كلَ ناظرٍ فيه، وأنْ يغفرَ لي بكلِ حرفٍ كُتِبَ، ويُقرَأ فيه الى يوم الدين إنَّه هو الغفور الرحيم، وصَلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفَصْلُ الأَوَّل:
حياةُ الحارثِ المُحاسِبِيّ

عَجِيبٌ أمرُ الحارِث المحاسبيّ فرغم شُهرَتِهِ في الفكر الإسلامي كأحدِ أعلامِ الصوفيّةِ البارِزين، إلّا أنّ البعضَ لا يعلمُ أنّه كان له جهودٌ كلامِيَّةٌ، وأنّه كان أحدَ أعلامِ المدرسةِ الكلابيَّةِ، وقد كان لتلك المدرسَةِ أثرُهَا البَارزُ المُمْتَدُ في الفكرِ الإسلامي، وقد يتعجبُ البعضُ من نِسْبَةِ المحاسبيّ الى حقلِ علمِ الكلام والمتكلمين، وهو ما لا ننكرُه على صاحبه، لكنَّ هذا البحثَ سيقومُ بدفع هذا العَجَبِ، ويبينُ أَثَرَ المحاسبيَّ الكلامِي، ويجمعُ آراءَه في مسائل كلامِيَّةٍ متعددة مما يعطى صورةً كافيةً عن المحاسبيِّ (مُتَكَلِّمًا)، وسأتناول أولاً حياة الحارثِ المحاسبِيِّ بادِئًا بلمحَة تاريخية عن العصرِ الذي عاشَ فيه.

أولاً: العصرُ الذي عاشَ فيه الحارثُ المحاسبيّ.

رغم أننا نفتقد التحديدَ الدقيق لتاريخ مولد الحارث المحاسبى، إلا أنه لا محيص عن قبول الفرض الذي يرى أن ميلادَه كان نحو سنة (١٦٥هـ)[١]، ومن المعلوم أنه توفى سنة (٢٤٣هـ)، فيكون المحاسبى قد عاش في عهد الخلافة العباسية، وقد عاصر في تلك الفترة الزمنية -الواقعة بين سنة:(١٦٥ الى سنة:٢٤٣هـ)- ثمانية من خلفاء بنى العباس وهم:

١. محمد المهدى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله المنصور من سنة (١٥٨ : ١٦٩هـ) ولد الحارث في آخر خلافته.
٢. موسى الهادي: أبو محمد موسى بن محمد المهدى من سنة (١٦٩ : ١٧٠هـ). وكانت خلافته نحو سنة.
٣. هارون الرشيد: أبو محمد هارون بن محمد المهدى من سنة (١٧٠ : ١٩٣هـ) تولى ثلاثة وعشرين عامًا.
٤. الأمين: أبو عبد الله محمد بن هارون الرشيد من سنة (١٩٣ : ١٩٨هـ) تولى خمس سنوات.
٥. المأمون: أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد من سنة (١٩٨ حتى ٢١٨هـ) تولى عشرين عامًا.

---

(١) - هذا التاريخ افترضه د/ عبد الحليم محمود في كتابه: أستاذ السائرين الحارث الحاسبى -نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة دون تاريخ لكنه مُوْدَعٌ بدار الكتب المصرية بتاريخ ١٩٧٣م، وسيأتى الحديث عن مولده ونشأته - إن شاء الله تعالى.

٦. المعتصم بالله: أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد من سنة (٢١٨: ٢٢٧هـ) تولى ثمان سنوات.

٧. الواثق بالله: أبو جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد من سنة (٢٢٧: ٢٣٢هـ) تولى خمس سنوات.

٨. المتوكل على الله: أبو الفضل جعفر بن المعتصم من سنة (٢٣٢: ٢٤٧هـ) تولى أربع عشرة سنة وهو الذي رفع محنة خلق القرآن[١].

وقد توفى الحارث المحاسبى سنة(٢٤٣هـ) أي في عهد الخليفة المتوكل، وعليه فقد عاش الحارث المحاسبى في ظل الخلافة العباسية، وقضى حياته في ظل ثمانية من خلفاء بنى العباس كلهم يقع ضمن ما يعرف تاريخيـًا بنهاية العصر العباسي الأول وبداية العصر العباسي الثاني الذي بدأ سنة ٢٣٢هـ. وبنهايته انتهت الخلافة العباسية سنة(٦٥٦هـ).

مقاومة الخلفاء العباسيين للزندقة والإلحاد

والجدير بالملاحظة هنا: ما رُوى عن ثلاثة من خلفاء بنى العباس هم: الخليفة المهدى (ت ١٦٩هـ)، وابنيه: الهادي (ت ١٧٠هـ)، والرشيد (ت ١٩٣هـ)، مما يوضح موقِفَهم من الزنادقة والملحدين.

يعتبر الخليفة المهدى (ت ١٦٩هـ) "أول مَنْ أَمَرَ بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، وأنه قد تتبع الزنادقةَ، وأفنى منهم الكثيرَ"[٢]. وكانت له جهود مستمرة معهم، وتتعدد الروايات عن جهادة معهم، فقد روى ابنُ كثير أنه في (سنة ١٦٢هـ) تم القضاء على المقنع الزنديق، الذي قال بالتناسخ بخراسان،فقد تم حصاره على يد سعيد الحريثىِّ الذي ضيَّق عليه الحصار، فلما أحسَّ الذنديقُ بنهايته المحتومة؛ احتسى سُمّـًا فمات[٣]، وانتهت فتنتُه، وفى ذكر أحداث سنة

(١) – انظر تفصيل تلك الخلاصة في بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء لأبى الحسن الروحي تحقيق عماد أحمد هلال، ومحمد حسنى عبد الرحمن، سعاد محمد عبد الستار، بإشراف د/ أيمن فؤاد سيد ص ٢١٥: ٢٣٤، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٤/ ٢٠٠٣، والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ١١١: ٣٤٠ نشر دار المنار بالقاهرة ط (١) ١٤٢١/ ٢٠٠١.

(٢) – تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ) ص ٢١٦ –نشر دار ابن حزم بيروت لبنان ط(١) ١٤٤٢/ ٢٠٠٣م.

(٣) – انظر البداية والنهاية ١٠/ ١٤٢ أحداث سنة ١٦٢هـ.

(١٦٧هـ) نص ابنُ كثير على أنَّ "فيها تتبع المهدىُّ جماعةً من الزنادقة في سائر الآفاق، فاستحضرهم، وقتلهم صبراً بين يديه، وكان المُتَولِي أمرَ الزنادقة هو: عمر الكلوازي، وفيها أمر المهدىُّ بزيادةٍ كثيرة في المسجد الحرام فدخل في ذلك دورٌ كثيرة، ووّلَى ذلك ليقطين ابن موسى المُوَكَّل بأمر الحرمين"[١]. فنلحظ هنا: أن المهدى قد جاهد الزنادقة، ولم يدَّخِر وسعًا في ذلك، بل نجده يستحدث وظيفةً جديدة، فيعيِّن رجلاً يتولى أمور الزنادقة ويفتش عنهم، ليأتي بهم بين يديه، حتى يشهد نهايتهم بنفسه، ويوْلِى هذا الأمرَ عنايته الفائقة -كما يفعل تمامًا فيما يتعلق بالحرم، فيُعين وكيلاً عنه ليقوم بشئونه وتوسعته- وهو ما سار عليه السعوديون حتى اليوم.

وكذا فعل المهدى مع بشار بن برد الشاعر المشهور (ت ١٦٧هـ) عندما اتُّهم بالزندقة، فقد ذكر أن بشاراً كان يقول بتفضيل النار على التراب، وأنه عذر إبليسَ في عدم السجود سيدنا آدم عليه السلام وقال في شِعره:

الأرضُ مُظْلِمةٌ والنَارُ مُشْرِقةٌ * *** والنَارُ مَعْبُودةٌ مُذْ كَانَتْ النَارُ

وشهد عليه جماعة بذلك "فأمر المهدىُّ بضربه حتى مات"[٢] فهذا دليل على اجتهاد المهدى في تتبع الزنادقة، وجهادهم وقتلهم إن لم يرجعوا عن غَيِّهم وإلحادهم، وقد كانت تلك سُنَّةٌ سنَّها لمَن جاء بعدَه من الخلفاء.

وكذا فعل ابناه: الهادي، والرشيد بعْدَه، فنجدُ الخليفة الهادي (ت ١٧٠هـ) عندما تولي الخلافةَ بعد أبيه "شرع في تطلب الزنادقة من الآفاق، فقتل منهم طائفةً كثيرة، واقتدى في ذلك بأبيه"[٣] المهدى وسار على نهجه الذي بدأه.

وكذا فعل هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) فبعدما تولى الخلافة بعد أخيه الهادي "تتبع الرشيدُ خَلقًا من الزنادقة، فقتل منهم طائفةً كثيرةً"[٤] مقتفيا بذلك سيرةَ أبيه وأخيه في مقاومة المدّ الإلحادِيّ

(١) - انظر البداية والنهاية ١٠/ ١٤٦ أحداث سنة ١٦٧هـ.
(٢) - وتشير بعضُ الروايات الى أنه جَمَعَ مع هذا الكلامِ هجاءَه للخليفة المهدى. البداية والنهاية ١٠/ ١٤٦.
(٣) - البداية والنهاية ١٠/ ١٥٣ أحداث سنة ١٦٩هـ..
(٤) - المصدر السابق ١٠/ ١٥٧ أحداث سنة ١٧٠هـ.

والزندقة، وهذا يدل على انتشار هذا الأمر، فالروايات كلها تنص على كثرة عدد الزنادقة وتعدد مواقف الخلفاء معهم.

ومن أهم المهمات هنا ملاحظة العبارة التي أوردها السيوطي عن المهدى بأنه: (أول مَنْ أمرَ بتَصنيف كُتُبِ الجَدَلِ في الردِّ على الزَنادِقة والملحدين). فهذه العبارة تمثل نقلة ثقافية كبرى، ونهضة علمية فائقة، حيث تعتبر من أكثر العوامل التي ساعدت على نهضة التأليف في الرد على المخالفين، كما يمكننا أن تعتبرها النواة الأولى لفهرسة الكتب وتصنيفها حسب تخصصها الدقيق، ولا شك في أنّ هذا التوجُّه الذي سلكه الخلفاءُ العباسيون سيكون له أثرٌ كبير على الحياة الثقافية بوجه عام، ويجعل العلماء يهتمون بالتحصيل والتأليف في الرد على الزنادقة والملحدين، وكذا الرد على المخالفين مطلقًا، وهو ما فعله الحارث المحاسبيّ.

وسواء ولد المحاسبى في أخر عصر المهدى أم بعده، فلا شك في أن ما قام به المهدى، وسار عليه الخلفاءُ من بعده كان له أثره الكبير في الحياة الثقافية، وهو ما سيؤثر على المحاسبى في تصديه لأهل الزيغ والبدع، والرد على المخالفين لمنهج أهل السنة، وتصنيه في الرد عليهم.

وقد عاصرَ الحارث المحاسبى القَاضِيَ المعتزلي أحمدَ بنَ أبي دؤاد (ت٢٤٠هـ)[١] وقد تولى ابن أبي دؤاد المعتزلي منصبَ قاضى القضاة أيام المعتصم، وابنه الواثق[٢]، أي في الفترة بين سنة (٢١٨: ٢٣٢هـ) تقريبًا.، وكانت تلك المعاصرة بينهما في مرحلة مُهمَّة للغاية في حياة كلٍ منهما، وهى مرحلة اكتمال نضجهما العلمي والفكري والاجتماعي، وقد كانت تلك المعاصرة في الفترة الواقعة في خلافة: المأمون، والمعتصم، والواثق، أي من سنة (١٩٨هـ الى: ٢٣٢هـ) وتلك هي فترة سطوة المعتزلة وتسلطها واستعانتها بالدولة لنشر مذهبها، وفرض آرائها بقوة السلطان، وفى تلك الفترة وقعت محنة خلق القران مع الإمام أحمد بن حنبل حتى ضُرِب بين يدى المعتصم(ت

(١) – حيث نصَّ ابنُ كثير على وفاة ابن أبي دؤاد في سنة (٢٤٠هـ) دون خلاف. البداية والنهاية ١٠/ ٣١٤.
(٢) – البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣١٤.

٢٢٧هـ)[١] -حتى جاء المتوكل (ت ٢٤٧هـ) "فرَفَعَ المِحنةَ في الدين، ومَنَعَ من الجدل"[٢]- ولعل هذا ما دفع المحاسبى للنظر في الكلام؛ للتصدي للرد على المعتزلة -حتى كان ما كان من الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) مع المحاسبى- مما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى- حيث إن فترةَ وفاةِ الثلاثة قريبة جداً، فقد تُوفِي القاضي المعتزلي(٢٤٠هـ)، وتوفى الإمام أحمد (٢٤١هـ)، وتوفى الحارث(٢٤٣هـ).

ويُذكر للخليفة المتوكل (٢٤٧هـ): أنه رفعَ محنة المعتزلة في خلق القران، ومنع الجدل في مسألة كلام الله تعالى، وقد ذكر ابن كثير عنه: أنه كان مُحبّبًا للرعية قائمًا في نُصرَة أهل السنة[٣]، وهو من توفى المحاسبى في عهده.

وأهم ما يميز تلك الفترة الزمنية من الناحية العلمية والثقافية: الى جانب ما سبق ذكره من الاجتهاد في مقاومة الزنادقة والرد على المخالفين، أنّها كانت فترةَ نضجٍ ثقافي، وفيها انتشرَ الاعتزالُ وعَمّ الأقطارَ، وبلغ الفكرُ الاعتزالي سطوتَه وقمّة شهرتِه،مستعَينًا على ذلك بالقوة السياسية، حين تولى ابن أبي دؤاد منصبَ قاضى القضاة، وكان ذلك سببًا أدّى الى الصراع بين المعتزلة، وبين الطوائف الأخرى، فمثلاً "كان يناهض المعتزلةَ في صفةِ الكلام، وخلقِ القران، وغيرِها من الصفات فريقان: فريقٌ يُسمَّون: السلف، يرون أنَّ الله تعالى وصفَ نفسَه بصفات من: قدرة، وإرادة، وعلم، وكلام، ووَصَفَ نفسَه أنَه على العرش،وقال تعالى: "ليس كمثله شيء"(الشورى/ ١١)، فيجب أنْ نؤمن بها كما جاءت ولا نتعرض لتأويلِها وشرحها...، وفريقٌ آخر من: الحنابلة زعَم: أنَّ القرانَ بحروفِه وأصواتِه قديمٌ، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضُهم جَهلاً: الجلد والغلاف قديمان"[٤]. وقد كان ذلك دافعًا للعلماء للرد عليهم، ولا شك أن الحارث المحاسبى سَيُسْهِمُ بقَدْرٍ ما في مقاومة الفكر

---

(١) - بدأت المحنة (سنة ٢١٨هـ) ـ وامتدت حتى وفاة الواثق سنة(٢٣٢هـ) انظر تفصيل ذلك في البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣٢٦،٢٦٧، ٣٢٧.

(٢)- بلغة الظرفاء للروحي ص ٢٣٢، وكذا وصفه ابنُ كثير بأنه : "قد أظهَرَ السنةَ بعد البدعة، وأخمَدَ أهلَ البدعِ وبدعتَهم بعد انتشارِها واشتهارها". البداية والنهاية ١٠/ ٣٤٥.

(٣) - البداية والنهاية لابن كثير١٠/ ٣٤٤، وبلغة الظرفاء للروحي ص ٢٣٢.

(٤)- ضحى الإسلام د/ أحمد أمين٣/ ٣٧: ٣٩ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ١٩٩٩.

المنحرف عن هدى السلف.

الخلاصة: أن الحياة العلمية كانت تتسم بسمتين: أولاهما: النضج الفكري والانفتاح الثقافي وكثرة التيارات والفكرية، وثانيتهما: المقاومة للفكر الإلحادي المنحرف البعيد عن مبادئ الإسلام، وكذا سيقاوم حتى الفكر الإسلامي البعيد عن هدي السلف الصالح -رضى الله تعالى عنهم.

وأما حالة علم الكلام خاصة فقد كان مزدهراً بارزاً مالئَ الدنيا وشاغلَ عقول الناس، ويلخص الشهرستانى حال علم الكلام بعبارة رائقة قائلاً: أمّا رونق الكلام، فابتداؤه من الخلفاء العباسيين: هارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل"[١] إذن فقد بلغ علم الكلام قمة نضجه في تلك الفترة التي كان فيها حكم هؤلاء الخلفاء العباسيون.

وأمّا من الناحية السياسية: فقد كانت تلك الفترة فترة صراعات عائلية سياسية تتمثل في التنافس على السلطة من أبناء العمومة، بل اشتد الأمرُ فوقعَ التنافسُ بين الإخوة بعضِهم بعضـًا، ودفعهم ذلك التنافس الى اللجوء الى الإكراه على التنازل عن الحكم، كما فعل المهدى مع أخيه عيسى بن موسى، حيث كان يغريه بخلع نفسه، فرفض، فهدَّده؛ فتنازل عن البيعة، وتم أخذها لولديه الهادي والرشيد[٢]، وكذا حاول الهادي بعد توَلِّيه الخلافةَ خلعَ أخيه الرشيد، وأخذَ البيعة لولده جعفر بدلاً من أخيه، واضطربت العلاقة بينهما، ولم يلبث أنْ توفى الهادي في نفس الليلة التي عزم فيها على التخلص من أخيه الرشد، والروايات مختلفة ومتعارضة في ذلك، والله أعلم بما كان[٣] وقد يؤدى الصراع الى التخلص النهائي من الخليفة أحيانـًا، وفى تلك الفترة بدأ نفوذُ التُرْكِ يظهرُ في الدولة في عهد المعتصم، واستفحل هذا الأمر بعده، حتى وصل الأمر الى أنهم باشروا قتل الخليفة المتوكل

(١)-الملل والنحل لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى تحقيق صديق جميل العطار ص ٢٤- نشر دار الفكر بيروت لبنان ط (١)١٤١٩/ ١٩٩٩.

(٢)- تفصيل ذلك في البداية والنهاية ١٠/ ١٢٧، ١٢٨، ١٤٥.

(٣)- تفصيل ذلك في البداية والنهاية ١٠/ ١٥٥، ١٥٤، ١٥٦.

ابن المعتصم سنة(٢٤٧هـ). [١]

والخلاصة: أن العصر الذي عاش فيه الحارث المحاسبى اتسم من الناحية العلمية بالازدهار الفكري، الذي أثمر صراعًا بين الفِرق الكلاميّة وبخاصة بين المعتزلة وأهل السنة، فنشطوا للرد عليهم، ومقاومة المد الاعتزالي، وكان للمدرسة الكُلابية بأعلامها الثلاثة: (ابن كلاب، والقلانسي، والمحاسبي) أثرٌ كبير في مقاومة أصحاب البدع والزنادقة، ومن الناحية السياسية كان عهد تنافس على السلطة أنتجت تغيرات سياسية وقلاقل داخلية في بلاط الحكم العباسي.

ثانياً: اسمُه وكُنيتُه ولَقبُه ونِسْبَتُه:

اسمه: الحارث بن أسد الله [٢]، وأحيانا يعبر المؤرخون عنه: بحارث دون (ال) التعريف[٣] وهو كثير عندهم؛ وأحيانا بالحرث دون الف بعد الحاء وهو قليل[٤] -كما فعل الشعراني[٥].

---

(١)- وينسب ابن كثير قتلَ المتوكل لابنه المنتصر إجمالاً، وكذا أبو الحسن الروحي لكنه فصل بما يفيد أنه لم يباشر قتله وإنما دبّره ويسره حيث ألهى الحاجب، وأنَّ الترك هم المباشرون لقتله، وأول من ضربه باغر التركي. والخلاصة: أن ابنه دبَّرَ وسَهَّل، والترك هم المباشرون لقتله والله أعلم. انظر البداية والنهاية لابن كثير١٠/ ٣٤٤، وبلغة الظرفاء للروحى ص ٢٣٢.

(٢) - هذا بإجماع المترجمين له ممن سيأتي ذكرهم، والكثير يكتفى بأسد المحاسبى فقط، ونادراً من يزيد منهم لفظ الجلالة فيقول: "أسد الله".

(٣) - وهو ما نجده عند الإمام أبي الحسن الأشعري في نهاية الجزء الثاني من مقالات الإسلاميين، ولعلها إشارة الى الأصل في ذلك؛ لأن أصل اسم العلم في العربية (حارث) دون ال فجاء ذلك الإطلاق منهم على الأصل، ثم صار علمًا (مقترنًا بال) لغلبة إطلاقه على هذا الصوفي بعينه ومن يشاركه في اسم (الحارث) كابى فراس الحمداني الشاعر الشهير كما ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢/ ٥٨ رقم (١٥٣).

(٤) - وهذا الإطلاق (الحرث) هكذا !! غير فصيح، لأن هذا ليس من باب العلمية، وهو اسم للزرع، أو للأرض المتَّخذة للغراس والزراعة، قال تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ :(آل عمران/ ١٤)، والمشهور الفصيح في الإطلاق عليه هو: الحارث، ولعل الألف ساقطة هنا سهواً.

(٥) - الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار للعارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني ١/ ٦٤ - نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة بدون تاريخ.

كنيته: أبو عَبْدِ اللهِ ".[١].

لقبه: لقب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى بعِدَّة ألقاب، ذكرَها المؤرخون له عند ترجمتهم له، وكلها وارد في سياق المدح والثناء عليه، فمنها لقب: الزَّاهِدُ[٢]، والعَارِفُ، وشيخ الصوفية، وفى ذلك يقول الذهبي عن الحارث: الزاهد العارف صاحب التصانيف".[٣]، وقال عنه أيضًا: الزاهد، العارف، شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ"[٤]، ولقب بإمام الطريقة[٥]، وأستاذ السائرين[٦].

وعليه فقد لقب الحارث بعدة ألقاب هي: الزاهد، والعارف أي العارف بالله تعالى، وشيخ الصوفية، وأستاذ السائرين، وصاحب التصانيف، وربما يُجْمَعُ له بين وصفين منها كالزاهد العارف بالله.

---

(١) – السلوك في طبقات العلماء والملوك لبهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي توفى قبل سنة ٧٣٢هـ تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي ٢/ ٣٥٥ نشر مكتبة الإرشاد صنعاء اليمن- ١٩٩٥م، وتقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت٨٥٢هـ) تحقيق محمد عوامة١/ ١٤٥حرف الحاء المهملة ترجمة رقم ١٠٠٩- نشر دار الرشيد سوريا ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١٣ ترجمة رقم(٣٥) تحقيق صالح السَّمر إشراف شعيب الأرناؤط نشر مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط(١)١٤٠٣/ ١٩٨٣م، وتاريخ مدينة السلام المشهور بتاريخ بغداد وأخبار محدثيها وذكر قاطنيها ومن دخلها من العلماء من غير أهلها ومريديها لإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن على بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق د/ بشَّار عوّاد ج٩/ ١٠٤ترجمة رقم(٤٢٨٣)-نشر دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط (١) ١٤٢٢/ ٢٠٠١م.

(٢) – تهذيب الكمال في أسماء الرجال: لجمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) تحقيق: د/ بشار عواد معروف ٥/ ٢٠٨- نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ – ١٩٨٠. و ط(٢) ١٤٠٣/ ١٩٨٣، ولسان الميزان تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت ٨٥٢هـ) تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ) ترجمة رقم:٢٥٤٩ ج٧/ ١٩١ نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية ط (١) ١٤٢٣/ ٢٠٠٢م. وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ١٤٥.

(٣) – دول الإسلام لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي (ت ٧٤٦هـ) ص١٣١- نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

(٤) – سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١٠.

(٥) – طبقات الشافعية لابن القاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقى الدين بن قاضي شهبة الدمشقي (٨٥١هـ) تحقيق: د/ الحافظ عبد العليم خان١/ ٥٩ -نشر عالم الكتب - بيروت ط (١) ١٤٠٧هـ..

(٦) – طبقات الشافعية الكبرى للإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ٢/ ٢٧٥ ترجمة رقم:(٦١)تحقيق د. محمود محمد الطناحي، د.عبد الفتاح محمد الحلو نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع ط (٢) – ١٤١٣هـ. وقد أطلقها عليه من المحدثين د/ عبد الحليم محمود وجعلها عنوان كتابه عنه.

نسبته: ينسب الإمام الحارث الى شيئين: أحدهما: أمرٌ معنوي، وهو محَاسبة النفس فاشتهر بالمحَاسبى، والثاني: أمرٌ حِسِّىّ، فينسب الى بلدته بغداد، وضبط النسبة الأولى: "المُحَاسَبِيّ: بضم الميم، وفتح الحاء المهملة، وبعد الألف، وسين مهملة مكسورة، وبعدها باء موحدة"[(١)]، ويقال إنما سُمِّى بالمحاسبي؛ لكثرة محاسبتِه لنفسِه[(٢)]، ويُروَى أنّه "سُئل بم تُحَاسب النفس؟ فقال: بقيام العقلِ على حِراسَةِ جِنايةِ النَفسِ، فيتفَقَد زيادتَها من نقصانِها، فقِيل له: مما تتولدُ المُحاسَبةُ؟ قال: من مخاوف النقْصِ وشّيْنِ البَخْس والرَغْبةِ في الزيادة والمحاسبةُ تورثُ الزيادةَ في البَصِيرَة، والكَيْسِ في الفِطْنَةِ، والسرعةَ إلى إثبات الحُجَّة، واتساعَ المعرفة، وكل ذلك على قدرِ لزومِ القلب للتفتيش، فقيل له: من أين تختلف العقولُ والقلوبُ عن محاسبة النفوس؟ قال: من طريق غَلَبَةِ الهَوى والشهوة؛ لأنّ الهوى والشهوة يغلبان العقلَ والعلم"[(٣)]، فهذا يدل على أنّه كان له مع محاسبة نفسه شأنٌ رفيعٌ؛ حتى نُسِب إليها، وسألوه عنها، واستَفْتَوهُ فيها.

وينسب أيضًا الى موطنه بغداد فيقال: البغدادي[(٤)]؛ نسبة الى بغداد، حيث دخلها مبكراً،

---

(١) – إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا) تأليف محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (المتوفي: ٦٢٩هـ) تحقيق د/ عبد القيوم عبد رب النبي ج٧/ ٣١١ –نشر جامعة أم القرى– مكة المكرمة ط(١)١٤١٠ه، وكذا ضبطها، وابنُ خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تأليف أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس٢/ ٥٧ ترجمة رقم (١٥٣)–دار صادر بيروت لبنان١٩٧٢، وغيرهم.

(٢) – طبقات الشافعيين لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق د/ أحمد عمر هاشم، د/ محمد زينهم محمد عزب ج١/ ١٢٦ –نشر مكتبة الثقافة الدينية سنه: ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج الدين السبكي ٢/ ٢٧٥، وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ١/ ٥٩. وقال: ابنُ خلكان "قال: السمعاني: وعرف بهذه النسبة، لأنه كان يُحَاسِبُ نفسَه". وفيات الأعيان لابن خلكان٢/ ٥٧ رقم (١٥٣)، وسير أعلام النبلاء حاشية المحقق رقم (١) ج ١٢/ ١١٠.

(٣) – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) ١٠/ ٨٨ ترجمة رقم:(٤٦٥) – دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١) ١٩٨٨:١٤٠٨.

(٤) – الفهرست لابن النديم ٥/ ٢٣٦ المقالة الخامسة من الفن الخامس في أسماء المصنفين من الزهاد والمتصوفة أبي الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفي: ٣٨٠هـ) تحقيق إبراهيم رمضان نشر دار المعرفة بيروت – لبنان ط(٢) ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م، ولسان الميزان لابن حجر٧/ ١٩١، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ١٤٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١٠.

وعاش ومات بها، وإن كان بَصْرِيَ الأصل[١]، والفرق بين بغداد والبصرة حتى لو فرضنا نسبته إليها هين يسير فكلاهما بأرض العراق.

وزاد البعضُ نسبة أخرى ثالثة هي: (العَنَزِيّ) كالسلمي (ت ٤١٢ هـ)[٢]السبكي[٣]، ولم يذكُرا تعليلاً لها، وقد جاءت عندهما عَرَضًا أثناء ذكرهما لسرد سند رواية الحارث لأحد الأحاديث النبوية.

ثالثاً: مولدُهُ ونشأتُهُ وشخصيَّتُه.

ولد الحارثُ المحاسبى بالبصرة، ونشأ بها، ثم ارتحلَ الى بغداد، واشتُهِرَ فيها وعلا نجمُهُ وشاع صيتُه، واستمرَّ بها حتى توفي فيها، ولذا نُسب إليها، ولم يحددْ المؤرخون السنةَ التي ولد فيها المحاسبى، ولم يشيروا إليها، بل صرح بعضُهم بأنه لم تُعرف سنةُ ميلاده[٤]، ومما يزيد الأمر صعوبة أنهم لم يشيروا إلى تحديد عمره، رغم الاتفاق على تحديد سنة وفاته بدقة والنص على أنها كانت (٢٤٣هـ)، ولو أشاروا إلى مدة حياته؛ لأعان ذلك في تحديد سنة الميلاد، لكنهم لم يفعلوا، ولعل سبب ترك ذلك أنهم لم يقفوا على تعيين سنة ميلاده؛ فلم يستطيعوا الإشارة الى المدة التي عاشها.

وكذا لم يذكروا شيئًا عن صباه ونشأته، غير أنه ارتحل من البصرة الى بغداد، دون الإشارة الى عمره وقتها أو السنة التي ارتحل فيها الى بغداد، لكننا نجد الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم محمود – وهو من أوائل الدارسين للحارث المحاسبى في العصر الحديث– يجتهدُ في الإشارة الى سنة مولده، وسار على هذا الاجتهاد، وارتضاه وفى ذلك يقول: لقد نشأ بالبصرة واستمر بها سنوات، ولا يتأتى

---

(١) – الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري (ت٤٦٥هـ) تحقيق د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف١/ ٥٧– نشر مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ط(١) ١٤٠٩/ ١٩٨٩.

(٢) – طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى (ت ٩١٢هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ص ٥٩ – ترجمة رقم (٦) ضمن الطبقة الأولى– نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١) ١٣١٩/ ١٩٩٨.

(٣) – طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١/ ٢٨٠– ولم يذكرها كلٌ من السلمى والسبكي على أنها ضمن القابه، بل جاءت عرضًا.

(٤) – يترك رضا كحالة موضع سنة الميلاد فارغًا فيقول: (الحارث المحاسبى (... –٢٤٣هـ/ ... –٨٥٧م) كذا دون كتابة شيء إشارة الى عدم تحديد المؤرخين لتاريخ ولادته– معجم المؤلفين ٣/ ١٧٤.

لنا تحديدُها في يقين جازم، ثم ذهب الى بغداد، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة، واستقرَّ به المقام فيها.....، إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده؛ إذ إن الكتب القديمة التي تحدثت عنه لم تذكر ذلك، بيد أنّ الملابسات ترشد الى أنه ولد -على التقريب- في العقد السابع من القرن الثاني الهجري،....

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئًا، ويمكننا أنْ نقول "استنتاجًا": إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء؛ ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروةً تُقدَّر بسبعين ألف درهم"[١]، ثم يرتضى هذا الاستنتاج ويصرح به قائلاً: "ولد المحاسبى في البصرة عام (١٦٥) للهجرة تقريبًا (٧٨١م)، لكنه قضى جُلَّ حياته في بغداد حتى توفي بها"[٢]، ثم يعود فيؤكد ذلك مرة أخرى بقوله: "وطفولته وشبابه فترتان مجهولتان، وأمّا عن الرجل في نضجه شيخًا وكهلاً، فلم تصلنا سوى نوادر قليلة"[٣]

وحقًا يأخذك العجب عندما تجد القشيري(ت٤٦٥هـ) -وهو مِنْ أقرب مَنْ ترجموا له زمانًا- يتحدث عنه حديثًا موجزاً لا يتناسب مع منزلة المحاسبى ومكانته الرفيعة، فلم تبلغ ترجمته عنده نحو صحيفتين، في نحو ثلاثين سطراً[٤]، لا تكاد تجد فيها ما تؤمله منها.

أمَّا عن شخصيته: فقد اتسم المحاسبى بقوة الشخصية والعزيمة القوية الماضية، ويصور ذلك د/ عبد الحليم محمود بقوله: "كان المحاسبى مثال الثوري والقائد المطاع، وكان رجلَ الانفعالاتِ المفاجئ، والقرارِ الحاسم، والروح المسيطرةِ القويةِ المِرَاسِ"[٥].

يشهدُ لذلك ما روى البعضُ من أنه رأى الحارثَ المحاسبى وهو آخذ برداء أبيه يأمرُه بتطليق أُمه؛ لما يراه المحاسبى من أنها لا تصح أن تكون زوجتَه، وتنص الروايةُ على أنّ الراوي كان "يقول رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق في وسط الطريق متعلقًا بأبيه، والناس قد اجتمعوا عليه، يقول: طلِّق أمي؛ فإنك على دين، وهي على دين غيرِه"[٦]، والله أعلم بصحة تلك الرواية، لكنها

---

(١) - أستاذ السائرين الحارث المحاسبي د/ عبد الحليم محمود ص ٨.

(٢) - أستاذ السائرين ص ٣١.

(٣) - السابق ص ٤٧.

(٤) - الرسالة القشيرية ١/ ٥٧.

(٥) - أستاذ السائرين ص ٥٥.

(٦) - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٩/ ١٠٤ ترجمة رقم(٤٣٣٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١٠، ١١١.

إن صحَّت دلّت على شدّته وقوّته فيما يراه ويعتقده صواباً.

رابعاً: شيوخُه وتلاميذُه.

أولاً: شيوخُهُ: كان للحارث المحاسبى عددٌ كبيرٌ من المشايخ الذين تلقى عنهم في مختلف العلوم: كالفقه والتفسير، واللغة، والتصوف، والكلام، وغيرها من العلوم(١)، ومن أبرز شيوخ الحارث المحاسبى وأشهرهم اثنان هما: الإمام الشافعي، وعبد الله ابن كلاب، وإليك تعريف موجز بهما.

١- الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ).

هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ المطَّلبيّ القرشيّ، عَالِمُ العَصْرِ، نَاصِرُ الحَدِيْثِ، فَقِيْهُ المِلَّةِ، أبو عَبْدِ اللهِ القُرَشِيُّ، ثُمَّ المُطَّلِبِيُّ، الشَّافِعِيُّ، المَكِّيُّ، الغَزِّيُّ المَوْلِدِ، نَسِيْبُ رَسُوْلِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَابْنُ عَمِّهِ، فَالمُطَّلِبُ هُوَ أَخُو هَاشِمٍ وَالِدِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وهو ثالث الأئمة الأربعة الفقهاء المجتهدين، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه بلا منازع، وهو أيضاً إمام في علم التفسير وعلم الحديث، والعربية، وله ديوان شعر مشهور بالحكمة، وكان الشافعي فصيحاً شاعراً، ورامياً ماهراً، ورحّالاً مسافراً. أكثرَ العلماءُ من الثناء عليه، حتى قال فيه الإمام أحمد: «كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس»، وَارْتَحَلَ - وَهُوَ ابْنُ نَيِّف وَعِشْرِيْن سَنَةً وَقَد أَفتَى وَتَأَهَّل لِلإِمَامَةِ- إِلَى المَدِيْنَةِ، فَحَمَلَ عَنْ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ (المُوَطَّأ)،عَرَضَه

(١) - راجع تهذيب الكمال للمزي ٣/ ١٠٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٢٨٧، ٥١١، ٥٤١، ٢٨٧، ج٩/ ٥١١، ١٠٧،٢٤٩، ٤٩٧، ٣٢٦،٤٤٧، ج١٠/ ٢٢٥، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ٦٤٤، وتقريب التهذيب لابت حجر ٨/ ٢٧٨، والثقات لابن حبان ٨/ ٢٩٨، وقد ذكر بعض الباحثين اثنين وثلاثين شيخاً للمحاسبي عرف بكل واحد منهم في نحو ثلاثة أسطر انظر الذات والصفات بين الإمام المحاسبى والهروي دراسة مقارنة ماجستير شاركت في مناقشتها ٢٠٢١م للباحث رمضان عنتر رمضان ص ٢١: ٢٨- بكلية دار العلوم جامعة المنيا ٢٠٢١م، ولم يذكر منهم الشافعي ولا ابن كلاب. منهم: محمد بن حميد اليشكري، وأبو معاوية السلمي هشيم بن بشير، ومروان بن شجاع الجزري، وإبراهيم الفزاري، وأبو سهل الواسطي عباد بن العوام، وأبو بشر إسماعيل بن مقسم، وأبو سفيان وكيع الجراح، ويحي بن أبي بكير، وعلى بن عاصم الواسطي، ومحمد بن جعفر البزاز، ويزيد بن هارون، ويونس بن محمد البغدادي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وخلف بن هشام بن ثعلب المقرئ المشهور....

عليه من حِفْظِهِ فقد كان آية في سرعة الحفظ، ورُوى عنه أنه قرأ يومًا قوله تعالى: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ"(المرسلات/ ٣٨: ٤٠) فلم يزل يبكى حتى غُشِى عليه، وكان كثير التلاوة للقران، ومن أشهر مؤلفاته: الرسالة، والأم، وديوانه الشعرى، ومسند الإمام الشافعي، وجماع العلم، وقد ملئَتْ شهرتُه الدنيا كلها، وعمَّت المشارقَ المغاربَ قدِمَ الى مصر، وأقام فيها حتى توفي بها سنة:(٢٠٤هـ/ ٧٦٧م) -رحمه الله تعالى[١].

وفى تلمذة الحارث المحاسبى له وجدنا البغدادي (٤٢٩هـ) عندما تحدث عن ترتيب أئمة الدين في علم الكلام، ذكر أنَّ منهم كبار الأئمة المجتهدين من الفقهاء الأربعة قال بعدما تحدث عن الإمام الشافعيّ: "ثم [جاء] من بعد الشافعي: تلامِذَتُه الجامعون بين الفقه والكلام كالحارث بن أسد المحاسبى"[٢] فقد جعل البغدادي المحاسبيَّ(ت٢٤٣هـ) تلميذاً للإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ).

والظاهر أن: تلمذة المحاسبى للشافعي ليست محل اتفاق لأننا نجد ابنَ كثير يترجم للمحاسبي في الطبقة الأولى من الشافعية تحت عنوان (الطبقة الأولى: النَقَلَة عن الإمام الشافعي) والحارثُ يقع تحت رقم عشرين ضمن أعلام هذه الطبقة، وكذا نقل ذلك ابنُ الصلاح، وكلاهما ناقل عن الأستاذ أبي منصور، ولكن ابنَ الصلاح لم يُسَلِّم بذلك فتَعَقَّبَه بقوله: "صُحبتُهُ للشافعي لم أَرَ أحداً ذكرَها سواه، وليس أبو منصور من أهل هذا الفن، فيعتمد فيما تفرد به، والقرائنُ شاهدةٌ بانتفائها"[٣] أي بانتفاء الصحبة.

---

(١) - راجع سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٧،٦، واستغرقت ترجمة الشافعي عند الذهبي نحو مائة صفحة، وطبقات الشافعيين لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ج١/ ١٧، ٤٠، وللشافعي ترجمة طويلة حتى ص ٩٤منه، وانظر أيضًا: الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه، للإمام محمد أبو زهرة ص ١٥- الناشر: دار الفكر العربي ط (٢) ١٩٧٨م.

(٢) - أصول الدين لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ص٣٠٨. وهى طبعة مصورة عن الطبعة التي نشرتها مدرسة الإلهيات بدار الفنون التُركية باستانبول ط: (١) ١٣٤٦/ ١٩٢٨أ وقد نشرتها عنها دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط: (٣) ١٣٠٣/ ١٩٨١.

(٣) - طبقات الشافعيين لابن كثير ١/ ١٢٦- ٢١)، وطبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ)، ويليه الذيل على طبقات ابن الصلاح للعلامة النووي (ت ٦٧٦هـ) تحقيق محيي الدين علي نجيب ١/ ٤٣٩-نشر دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان ط(١) ١٤٣١/ ١٩٩٢.

وحقًا نجدُ الفَرْقَ بين وفاة الشافعي(ت٢٠٤) والمحاسبي(ت٢٤٣) نحو أربعين عامًا، لكن ينبغي التفريق بين الصحبة بالمعنى الخاص والمعنى العام، فالمنفى هي: الصحبة الخاصة، لكن الصحبة بالمعنى العام يمكن قبولُها، وهو ما نبه عليه السبكي بقوله: "إنّ أبا منصور: صرّح بأنّه [أي المحاسبي] صَحِبَ الشافعي، فالاعتراضُ عليه لائحٌ، وإلَّا فقد يكون أراد بالطبقة الأولى: مَنْ عاصرَ الشافعي وكان في طبقة الآخذين عنه، وقد ذكره في الطبقة الأولى أيضًا أبو عاصم العبَّادِيَ، وقال: كان ممن عاصرَ الشافعي واختار مذهبَه، ولم يقلْ: كان ممّن صحِبَه فلعل هذا القدر مرادُ أبي منصور"[١].

والخُلاصَة: أنّه لا يمكن الجزم بصحبة الحارث المحاسبى للشافعي أو نفيها، لأنها شهدت خلافًا بين المؤرخين، ولو حصل عندهم جزم بأحد الطرفين لارتفع هذا الخلاف، والتعقب، ومحاولة التفسير، والجمع بين الأمرين، وعند عدم الجزم بإثباتها، فأقل ما يقال فيها: إنَّها صُحْبَةٌ بالمعنى العام أي أنَّه عاصَرَهُ، وكان في طبقة الآخذين عن الإمام الشافعي، وأنه اختار مذهبه. وهذا القدر كاف في إثبات العلاقة بينهما.

٢- ابن كُلَّاب (٢٤٠هـ):

عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب القطان أبو محمد، البصري (توفى في حدود ٢٤٠ هـ)[٢]، وابن كُلَّاب مؤسس المدرسة الكُلَّابية الكَلامية، وهو الرجل الأول فيها، ثم تلاه الحارث المُحاسبى الذي يعتبر الرجل الثاني فيها، وهو امتداد لفكر ابن كلاب، ثم جاء القلانسي ثالثهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين تنسب إليهم تلك المدرسةُ الكبيرةُ الأثر ، وهم مؤسسوها.

فتلقى الحارث المحاسبى عن ابن كلابَ يقول الذهبي: "ابنُ كُلاَّب رأسُ المتكلمين بالبصرة

(١) – طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٥ ترجمة رقم:(٦١).

(٢) – والحق أنه لم يقع في تعيين سنةِ وفاةِ ابن كُلَّاب قولٌ فصلٌ، بل الظاهرُ عدمُ تعيينِها بدقة، لكن الروايات تشير الى أنه توفي في حدود سنة (٢٤٠هـ) تقريبًا، أو بعدها بقليل. راجع بحثي عنه بعنوان: (ابن كُلَّاب حياتُه وآراؤه الكلامية) أ.د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجاني موسي –ج ٢ص ١٢٨١ : ١٤٠٣ – بحث منشور بمجلة – الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية تصدر عن– كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر عدد (٤١) إصدار ديسمبر ٢٠٢١م. https://bfsa.journals.ekb.eg/article_228874.html

في زمانه أخَذَ عنه....، وقيل: إنَّ الحارثَ المحاسبي أخذَ علمَ النظر والجدل عنه أيضًا."[1]، وقد "ذُكِر أنّه -أي الحارث- تخَرَّج بأبي محمد عبد الله بن سعيد القطان، الملقب بابن كلاب"[2] فالعبارة الأولى صريحة في الأخذ والتلقي، والمراد بقولهم: (تخَرَّج بابى...، أنّه تتلمذ أو تخرج على يدية، وهى عبارة شائعة عند المتقدمين في الدلالة على التلقي، وفي ذلك دلالةٌ على تلقيه عن ابن كلاب، ولن أطيل بإعادة ما سبقت كتابته عن ابن كلاب، فراجعه إنْ شئت في بحثى عن ابن كلاب بعنوان: (ابن كُلَّاب حياتُه وآراؤه الكلامية)، وقد انتهيت من إعداد في آخر سنة (٢٠١٨م) ونشرته في حولية -الكلية التي تخرجت فيها- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر -عدد (٤١) إصدار ديسمبر ٢٠٢١م.

والخلاصة: أن من أهم مشايخ الحارث في هذا الميدان الإمام الشافعي، وابن كلاب، وهما أبرز شيوخه، وإلا فللمحاسبي عدّة مشايخ في شتى العلوم والمعارف، وقد اقتصرت في شيوخه على ما يناسب ميدان هذا البحث.

ثانياً: تلاميذُ المحاسبيّ.

تشير كتب التراجم أن للحارث المحاسبى تلاميذَ كُثُر[3] منهم ما يلى:

١. الجنيد شيخ الطريقة ت ٢٩٧هـ[4].

٢. أبو العباس أحمد بن مسروق الطوسى ت٢٩٩ه[5].

---

(١) - سير أعلام النبلاء للذهبي في ترجمة رقم:(٧٦) لابن كلاب ج١١/ ١٧٤.

(٢) - طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١/ ٤٤٠.

(٣) - طبقات السبكي ٢/ ٢٧٦، والطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٤ نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة، وتاريخ بغداد لابن عساكر ٥/ ١٩٠، وطبقات الأولياء لابن ملقن ١/ ١٤، وصفة الصفوة ج٤/ ١٢٩.

(٤)- طبقات السبكي ٢/ ٢٧٦، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٤ نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة بدون تاريخ

(٥)- جاء عنه في: في ذكر أهل طوس: أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي سنة: ٢١٤: ٢٩٩هـ سكن بغداد، وصحب الحارث المحاسبي....، مات ببغداد سنة تسع وتسعين ومائتين. وقيل سنة ودفن في مقابر باب حرب وبلغ أربعًا وثمانين. طبقات الأولياء لابن ملقن ١/ ١٤، وصفة الصفوة ج٤/ ١٢٩، وطبقات السبكي ٢/ ٢٧٦. =

٣. أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي[١].

٤. إسماعيل بن إسحاق السراج[٢].

٥. أحمد بن وهب الزيات من مشايخ الصوفية[٣].

٦. أبو الحسين بن خيران، وغيرهم[٤]

٧. الأخوان: ابنا أبي الورد: أحمد بن أبي الورد، وأخوه محمد بن أبي الورد[٥].

٨. محمد بن يعقوب الفرجي[٦].

ولن أُطيل بالترجمة لكل واحد منهم، بل سأقتصر في الترجمة على أشهرهم، وهو الجنيد؛ رغبة في الإيجاز.

الجنيد تلميذ الحارث.

يعتبر الإمامُ الجنيد من أشهر تلاميذ الحارث، ووارث علمه، ودليل منزلته، ومحل فخر أستاذه المحاسبي، فقد كان بينهما لقاءات ومحاورات تدل على طول صحبة ومتابعة، والجنيدُ غنيٌّ عن التعريف، وهو الملقب بشيخ الطائفة، وشيخ الصوفية -عند الذهبي- وهو أبو القاسم الجنيد بن

طبقات الحنابلة لأبى الحسين بن أبي يعلى: محمد بن محمد (المتوفي: ٥٢٦هـ) تحقيق محمد حامد الفقي ٢/ ٦٩- نشر: دار المعرفة بيروت لبنان.

(١)- طبقات السبكي ٢/ ٢٧٦.

(٢)- طبقات السبكي ٢/ ٢٧٦.

(٣)- تاريخ بغداد لابن عساكر في حرف الواو من أباء الأحمدين ترجمة رقم: (٢٦٤٧) ٥/ ١٩٠. قال عنه ابن عساكر: أحمد بن وهب الزيات من مشايخ الصوفية... من أصحاب بشر بن الحارث...، وحارث بن أسد المحاسبي.

(٤)- طبقات السبكي ٢/ ٢٧٦.

(٥)- قيل فيهما: كان أحمد ومحمد ابنا محمد بن أبي الورد صحبا أبا عبد الله الساجي، وكان أبو عبد الله يقول: من أراد أن يخدم الفقراء فليخدم خدمة ابنيّ ابنِ أبي الورد صحباني عشرين سنة ما سألاني مسألةً قط، وما رأيت منهما منكرا قط، صحب أحمد بن أبي الورد بشراً الحافي، والحارث المحاسبي، ومات أحمد قبل أخيه محمد". صفة الصفوة لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج تحقيق محمود فاخوري، د/ محمد رواس قلعجي ج ٢/ ص٣٩٦-نشر: دار المعرفة بيروت ط(٢) ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

(٦) - حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٢٨٧. قال عنه: صحب الحارث المحاسبى.

محمد، سيد هذه الطائفة وإمامهم، وأصله من نهاوند، ومنشأه ومولده بالعراق، وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريري، وكان فقِيهًا على مذهب أبي ثور، صَحِبَ السَرِيّ السَقطى، والحارث المحاسبيّ، ومحمد بن علي القصاب، وتوفي سنة سبع وتسعين ومائتين(١)، قيل عنه: لَمْ يُرَ فِي زَمَانِهِ مِثْلُهُ فِي عِفَّةٍ وَعُزُوفٍ عَنِ الدُّنْيَا، قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ مَرَّةً: كُنْتُ أُفْتِي فِي حَلْقَةِ أَبِي ثَوْرٍ الكَلْبِيِّ وَلِي [أي للجنيد] عِشْرُوْنَ سَنَةً، وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ عَطَاءٍ: كَانَ الجُنَيْدُ يُفْتِي فِي حَلْقَةِ أَبِي ثَوْرٍ، [ويروى]عَنِ الجُنَيْدِ أنه قَالَ: مَا أَخْرَجَ اللهُ إِلَى الأَرْضِ عِلْمًا وَجَعَلَ لِلْخَلْقِ إِلَيْهِ سَبِيْلاً، إِلاَّ وَقَدْ جَعَلَ لِي فِيْهِ حَظًّا"(٢)،.... قَالَ ابْنُ نُجَيْدٍ: ثَلاَثَةٌ لاَ رَابِعَ لَهُمْ: الجُنَيْدُ بِبَغْدَادَ، وَأَبُو عُثْمَانَ بِنَيْسَابُوْرَ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ بنُ الجَلاَّءِ بِالشَّامِ.....وكان الجُنَيْدَ يقول في وصف حقيقة التصوف: عِلْمُنَا مَضْبُوطٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الكِتَابَ، وَيَكْتُبِ الحَدِيْثَ، وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لاَ يُقْتَدَى بِهِ". وقال عنه أيضًا: مَا أَخَذْنَا التَّصَوُّفَ عَنِ القَالِ وَالقِيْلِ، بَلْ عَنِ الجُوْعِ، وَتَرْكِ الدُّنْيَا، وَقَطْعِ المَأْلُوفَات."(٣).

ويشير الذهبي عند ترجمته للجنيد الى صحبته للمحاسبي بقوله: "وَصَحِبَ أَيْضًا: الحَارِثَ المُحَاسِبِيَّ...، وَأَتْقَنَ العِلْمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وَتَأَلَّهَ، وَتَعَبَّدَ، وَنَطَقَ بِالحِكْمَةِ(٤)، وجاء في صحبة الجنيد للمحاسبي أيضًا أن الجنيد : "أُختص بصحبة خاله السرى السقطى، والحارث المحاسبى،....."(٥)

يروى بعضُ المؤرخين عن الجنيد التصريحَ بصحبة المحاسبى، حيث نجده يصف المحاسبى أيضًا: بأنه من الأكابر بقوله: قال حاتم: سمعت أبا القاسم جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري

---

(١) – السلوك في طبقات العلماء والملوك لبهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي توفى قبل سنة ٧٣٢هـ تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي ٢/ ٣٥٥ نشر مكتبة الإرشاد صنعاء اليمن – سنة ١٩٩٥م.

(٢) – سير أعلام النبلاء للذهبي ترجمة الجنيد رقم (٣٤) ج١٤/ ٦٧ ترجمة رقم: (٣٤).

(٣) – سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٤/ ٧١، ٧٠.

(٤) – سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٤/ ٦٧.

(٥) – طبقات الشافعية الكبرى ـ للإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي تحقيق: د. محمود محمد الطناحي و د.عبد الفتاح محمد الحلو١/ ٢٦٠ عند ترجمة الجنيد رقم (٦٠) –نشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع طبعة(٢) ١٤١٣ه، وطبقات الصوفية الكبرى للشعراني ١/ ٦٤– نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة بدون تاريخ.

رحمةُ اللهِ عليه يقول: صحبتُ خمس طبقات من الناس الأكابر: أولهم: أبو الحسن سري، وحارث بن أسد، وأبو عبد الله، وأبو جعفر الخصاف، وأبو يعقوب محمد الصباح ونظرائهم في السن والمكان".[١] كل ذلك يقطع بتلمذة الجنيد على يد المحاسبى.

ومما يدل على تلمذة الجنيد للحارث وجلوسه إليه وتأثره به أن الجنيد روى عن المحاسبى بعضَ عباراتِه، ومنه ما رواه أبو الصقر عنه بقوله: "سمعت الجنيد قال سمعت الحارث المحاسبي يقول: قيل لمحمد بن واسع: لم لا تتكئ؟! قال: تلك جلسة الآمنين".[٢] وهذا من روائع الآداب مما يختص الصوفيةُ والعُبَّاد بروايته.

وهناك نصوص تدل على أنه كان بين الحارث المحاسبى والجنيد طول صحبة ومخالطة ومجالسة وحوار ومؤانسه في ثلاث روايات يذكرها أبو نعيم، وغيره[٣] روايةً عن الجنيد نفسه.

وقد أورد أبو نعيم الرواية الأولى بقوله: أخبرني جعفر بن محمد الخواص في كتابه وحدثني عنه أحمد بن محمد بن مقسم قال سمعت الجنيد بن محمد يقول كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا فيقول: اخرج معي، فأقول له: تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات فيقول[الحارث]: أخرج معي ولا خوف عليك، فأخرج معه فكأن الطريق فارغًا من كل شيء، لا نرى شيئًا نكرهه، فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال[الحارث] لي: سلني؟ فأقول له: ما عندي سؤال أسألك. فيقول لي: سلني عما يقع في نفسك؛ فتنثال على السؤالات فأسأله عنها، فيجيبني عليها للوقت، ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتبًا.[٤]

فهذه الرواية الأولى تدل على أمور متعددة:

١. التزاور بينهما وقدوم الحارث المحاسبى الى بيت الجنيد.

---

(١)- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمرى ٢٠/ ٢٧١ ترجمة سعد ابن عبد الله البزاز رقم:(٢٤٢٠) - نشر دار الفكر بيروت لبنان - ١٤١٥/ ١٩٩٥م.

(٢) - تاريخ دمشق ٥٦/ ١٥١.

(٣) - تاريخ بغداد لخطيب البغدادي -ترجمة رقم: (٤٢٨٣) ٩/ ١١٣.

(٤)- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم - ترجمة رقم: (٤٦٥) ج١٠/ ٧٤.

٢. خروجهما معا والجلوس والتحاور والنقاش العلمي بينهما، وتلقى الجنيد من الحارث إجابات لما يَعِنُّ له ويسأل عنه.

٣. أن هذه المحاورات كانت تعتبر تمهيداً لمؤلفات قام بها الحارث المحاسبى.

٤. وفي الرواية ما يشير الى حرصهم على الخلوات والبعد عن الأشياء التي قد تكون سببًا للتشاغل أو مظنة المعاصي.

٥. وتشير الرواية الى بعض كرامات الصوفية كما يفهم من قوله: أخرج معي ولا خوف عليك، فأخرج معه فكأن الطريق فارغًا من كل شيء، لا نرى شيئًا نكرهه، حيث يأمره بالخروج ويرجو من الله تعالى الأمن؛ فيؤمنهم اللهُ تعالى بفضله مما يخافونه، فلا تقع أعينُهم على شيء يكرهونه.

والرواية الثانية يقول فيها أبو نعيم: أخبرني جعفر بن محمد في كتابه وحدثني عنه أحمد بن محمد بن مقسم قال: سمعت الجنيد يقول: كنتُ كثيراً أقولُ للحارث: عُزلتي أُنْسِي، وتخرجني إلى وَحشَةِ رؤيةِ الناسِ والطُرقاتِ؛ فيقولُ [المحاسبيُّ] لي: كم تقول لي: أنسي في عزلتي،[وأنا أقولُ لك]: لو أنَّ نصفَ الخلقِ تقربوا مني ما وجدت بهم أُنْساً، ولو أنَّ النصفَ الآخَر نأَى عنّي، ما استوحشت لبُعدِهم"[(١)]، فهذه الرواية الثانية تدل على: أن الحارث المحاسبى قد تجاوز المرحلة التي لا يزال فيها الجنيدُ، وارتفع عليها الى أعلى منها؛ حيث لم يعد للناس، ولا لأحوالهم عنده مشاهدة، ولا اعتبار، وإنما أُنْسُهُ ووحشتُه متعلقان بالقرب من الله تعالى أو البعد عنه جل وعلا، فذلك مناطُ الأُنْسِ والوَحْشَة عند المحاسبى، وهي مرحلة أعلى وأسمى مما عليه تلميذه الجنيد، وكلهم سادة رضى الله تعالى عنهم.

والرواية الثالثة جاء فيها: "أخبرني جعفر بن محمد في كتابه، وحدثني عنه أبو الحسن: قال: سمعتُ الجنيدَ يقول كان الحارثُ كثيرَ الضُّرِ[(٢)]، فاجتاز بي يومًا وأنا جالسٌ على بابِنا، فرأيت في وجهه زيادةَ الضُّر من الجوع، فقلتُ له: يا عم، لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا، فقال: أوَتفعل؟! قلتُ: نعم، وتسرني بذلك، فدخلتُ بين يديه، ودخل معي، وعمدت إلى بيت عمي، وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة، لا يكون مثلها في بيتنا، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين

(١)-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم - ترجمة رقم: (٤٦٥) ج١٠/ ٧٤..

(٢) - يريد متغير الحال من الجوع، أو كثير الجوع للتشاغل عن الطعام والشهوات، لذا يبدو عليه أثرُ الجوع واضحًا.

يديه، فمد يده، وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فَرَأَيْتُهُ يَلُوْكُهَا، فَوَثَبَ وَخَرَجَ، وَلفَظَ اللُّقْمَةَ، فَلَقِيْتُهُ، فَعَاتَبْتُهُ، فقال لي فَقَالَ: أَمَّا الفَّاقَةُ فَكَانَتْ شَدِيْدَةً، ولكن بيني وبين الله علامة: إذا لم يكن الطعام عند الله مرضيًا، ارتفع إلى أَنْفِي مِنْهُ زَفْرَةٌ، فَلَم تقبَلْهُ نفسي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت".[١]، وهذه الرواية صريحة في الدلالة على: الصحبة التزاور والحديث، وإكرام الضيافة، والأنس والقرب والمصارحة بالأسرار والكرامات، وفيها أيضًا: كرامة من كرامات الحارث المحاسبى التي أكرمه اللهُ تعالى بها؛ لشدة ورعه وتحرزه عن الحرام، حيث جعل اللهُ تعالى له علامةً يميز بها بين الخبيث والطيب، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء ولا حكر على فضل الله وكرمه، وفيها: دلالة على ما كان عليه حال الزهاد العباد ومدى عزوفهم عن الدنيا وتخففهم من حطامها الفاني.

وقد أشار السلمى الصوفي الى ما يفيدنا أن الجنيد تتلمذ على يد الحارث وصَحِبَهُ، وكان من ثمار تلك الصحبة أن روى الجنيدُ عن المحاسبى بعضَ أقواله، ومن تلك الأقوال: قول الحارث في الصبر حيث روى السلمى ذلك عنه عند تفسيره لقوله تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق). [الروم/ ٦٠] "قال رويم: الصبر ترك الشكوى، قال أبو عثمان: من تحقق بما وعد الله الصابرين من جميل الثواب وحسن العطاء هان عليه الصبر على المكاره ولم يؤلمه المقام عليها. سمعت أبا الحسين الفارسي يقول: سمعت عباس بن عاصم يقول سمعت الجنيد - رحمة الله عليه - يقول: سمعتُ حارثَ المحاسبي - رحمة الله عليه - يقول: الصبر: التهدف لسهام البلاء"[٢]، ويؤكد تلك الرواية عنه ما جاء عنه أيضًا في تفسير قوله تعالى:(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). [الزمر/ ١٠] :قال حارث المحاسبي: الصبر: التهدف لسهام البلاء".[٣]

والملاحظ هنا: أن الجنيد لا يكتفى بمجرد الرواية عن الحارث بل يجله ويقدره ويترحم عليه

---

(١)- حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٧٤، ٧٥. وانظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١١ ترجمة رقم (٣٥)، وتاريخ بغداد ٩ / ١٠٦، وطبقات الشافعية٢/ ٧٦.

(٢) - تفسير السلمي ٢/ ١٢٨.

(٣) - المصدر السابق ٢/ ٢٩٣.

بقوله: رحمة الله عليه، وهو إنما يروى عنه في معرض الاعتداد بكلامه والقبول له وتأييده.

خامساً: عِفَّةُ الحارثِ المحاسبيّ وورَعُه.

أجمع المؤرخون الذين ترجموا للحارث المحاسبى على وصفه بالورع، وهذا لا جدال فيه، حتى روى البغدادي عن المحاسبى أنه امتنع أن يأخذ شيئا من ميراثه من أبيه شيئًا؛ لكونه معتزليًا بقوله: "امتنع الحارث المحاسبى عن غَنْمِ [أى أخْذ] ميراثِ أبيه؛ لأنّ أباه كان معتزليًا"، وأشار الى ذلك ثانيًا عندما تحدث عن الآراء في حكم التوارث بين أهل الأهواء وأهل السنة، وقد مال الى اختيار القول: بعدم التوارث بين المعتزلة وأهل السنة، وذكر أنّ هذا اختيار المحاسبي أيضًا بقوله: "...وبه [أي بعدم التوارث بين المعتزلة وأهل السنة] قال الحارث المحاسبى؛ ولذا لم يأخذ ميراث والده؛ لأنّ والدَه كان قَدَريًّا"(١).

والملاحظ هنا على البغدادي: أنه يعلل ذلك في الموضعين بأن سبب الامتناع إنما كان لأن والد المحاسبى كان من القدرية أو من المعتزلة، فالبغدادي شديد التَحَامُل على المعتزلة حتى رأى الأخذ بمذهب من منع التوارث بين المعتزلي وأهل السنة، ثم يشير الى امتناع المحاسبى عن أخذ ميراثه لهذا السبب، كأنه يستدل بسلوك المحاسبى على تقوية وترجيح القول الذي يرى عدم التوارث بين أهل السنة والمعتزلي، ولا شك أنّ في ذلك مبالغةً وتحاملاً شديداً.

والذي نأخذه من كلام البغدادي هذا:

١. تحديد مذهب والد المحاسبي العقدي وأنه كان معتزليًا، أو لأنه كان واقفيًا"(٢) والفرق بين

---

(١) - أصول الدين للبغدادي ص ١٨٩، ص ٣٤١.

(٢) - صرح بذلك أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٧٥. والذهبي في سير النبلاء ١٢/ ١١٠/ والمزى في تهذيب الكمال ٥/ ٢١٠. وكونه واقفيًا نسبة الى الواقفية احدى فرق الخوارج، وقصة نشأتهم طريفة تدور حول رجل اسمه إبراهيم من الإباضية -إحدى فرق الخوارج أيضا- أقسم على بيع جاريته في الأعراب فقال له رجل منهم يسمى ميمون: كيف تبيع جاريةً مؤمنةً إلى الكفرة؟! فأجابه إبراهيم: بأن الله أحل البيع، فتبرأ منه ميمون، وتوقف أخرون في ذلك، فلم يجزموا بقول، وكتبوا الى علمائهم، فبسبب ذلك نشأت ثلاث فرق للخوارج أحدها: اتباع إبراهيم سموا: الإبراهيمية، وثانيها: اتباع ميمون سموا: الميمونية، وثالثها: هم الذين توقفوا سموا الواقفية!! الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٩،٤٥، والتفصيل ص ٦٤-تحقيق طه عبد الرؤوف سعد مؤسسة الحلبي بالقاهرة.

كونه معتزليـًا وواقفيـًا خارجيـًا كبير جداً، لا نكاد نجد عنه أخباراً أكثر من هذا.

٢. منزلة المحاسبى عند البغدادي وأنّه كان يقدِّره ويجلُّه حتى استأنس بفعله في ترجيح وتقوية ما اختاره من منع التوارث بين أهل السنة والمبتدعة.

٣. ورع المحاسبى حيث حمله ذلك الورع على التخلص من مال أبيه لشبهةٍ فيه.

٤. تعصب البغدادي وتحامله الشديد على المعتزلة.(١)

وقد علل بعضُ ابن خلكان ذلك بالورع فقال:" وكان قد ورث من أبيه سبعين الف درهم فلم يأخذ منها شيئاً، وقيل: لأن أباه كان يقول بالقدر؛ فرأى المحاسبى أن من الورع أن لا يأخذ مير اثه....ومات وهو محتاج الى درهم"(٢)

وقد علل بعضُ العلماء تركَ المحاسبيّ لمير اثه بسببٍ آخرَ أوْلَى بالقبول وهو: تورع الحارث عن الشبهات؛ لأنَّ مالَ أبيه كان فيه شُبْــهَـة، فتركَه المحاسبيُّ كلَّه ورعـًا ومبالغةً في ترك الشبهات،

(١) – وفى بيان ذلك التحامل وبلوغه منتهاه نجد البغدادي يقول في الموضع الأول الذي تحدث فيه عن الركن الأول من أركان الإسلام وهو الشهادة، وأنها لا تقبل من الناطق بها إلا بحقها وشرطها المتمثل في: المعرفة، التصديق القلبي اليقيني : أما إذا أطلقها المنافق الذي يعتقد خلافَها فإنّه لايكون عند الله مؤمنـًا ولا ناجيـًا من عقاب الآخِرة، وإنما يجرى عليه في الظاهر حكم الإسلام: من سقوط الجزية عنه، وفى دفنه في مقابر المسلمين، وفى الصلاة عليه، والصلاة خلْفِه، هذا كله إذا لم يظهر مع نفاقه الباطن بدعة شنعاء، فإن أظهرَ بدعةً: نُظِرَ: فإن كانت بدعتُه كبدعةِ القرامطة الباطنيَّة، وكبدعة الغُلاة من الرافضة الحلولية فإنه مرتد يقتل ولا يُصلى عليه ويكون ماله فيئـًا للمسلمين. وإن كانت بدعته كبدعة القدرية فإن المتكلمين من أصحابنا قالوا بانقطاع التوارث بينهم وبين أهل السنة، ولذلك امتنع الحارثُ المحاسبى عن غَنْمِ مالِ أبيه؛ لأن اباه كان معتزليـًا. أصول الدين للبغدادي ص ١٨٩،١٨٨.

ولكن البغدادي تخَفَّفَ في الموضع الثاني شيئا قليلاً عندما تحدث عن حكم أنكحة أهل الأهواء وذبائحهم ومواريثهم، فنقل الخلاف، ونَصَّ على مذهب الحارث المحاسبي في ذلك بقوله:"أجمع أصحابُنا على أن أهل الأهواء لا يرثون من أهل السنة، واختلفوا في ميراث السنّي منهم: فمنهم من قطع التوارث بين الطرفين، وبه قال الحارث المحاسبى، ولذا لم يأخذ ميراثَ والدِه لأنه كان قدريـًّا، ومنهم من رأى توريث السنى منهم، وبناه على قول معاذ بن جبل: إن المسلم يرث من الكافر، وإن الكافرَ لا يرث من المسلم، وعلى قول أبي حنيفة: يرثُ السنيُّ من المبتدع الضال ما كسبه قبل بدعته". أصول الدين للبغدادي ص ٣٤١.

(٢) – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان(ت٦٩١هـ) تحقيق إحسان عباس ٢/ ٥٧ ترجمة رقم:(١٥٢) نشر دار صادر بيروت لبنان ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

وحرصاً منه على تحرى الحلال الخالص، والحرص عليه مهما كلفه ذلك، ولو كلفه الورع تركُ ميراثه كاملاً – فمن للأمة برجال وَرِعِينَ كالحارث المحاسبى وأمثاله– وهو ما رجَّحه وعبَّر عنه د/ عبد الحليم محمود بقوله: ولكن المحاسبى –فيما يبدو– امتنع عن ذلك لمجرد الورع، فيما تجُرُّه الثروة وتستتبعه من تفكير فيها وتدبير لها وتنمية وحفظ لها"[١]، وهذا ما أميل الى اعتباره سبباً مقبولاً ،فقد ترك الحارث ميراثه من والده؛ تورعاً، بعيداً عن تحامل البغدادي الشديد على المعتزلة[٢].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن سبب تركه لميراث أبيه أنه و اقفياً لا معتزلياً كما قال البغدادي، فقد روي عن الجنيد أنه قال: "مات أبو حارث المحاسبي يوم مات وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلف مالا كثيراً، وما أخذ منه حبة واحدة، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان وكان أبوه واقفياً....، وقال أبو نعيم قال سمعت أبا الحسن بن مقسم يقول سمعت أبا علي بن خيران الفقيه يقول رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق في وسط الطريق متعلقا بأبيه، والناسُ قد اجتمعوا عليه يقول له: طَلِق أمي؛ فإنك على دين وهي على غيره"[٣]، لأن أباه كان واقفياً كما تذكر رواية المزىّ هذه، وكما نص عليه الخطيب البغدادي[٤]،أبو نعيم[٥]، و الذهبي[٦].

والحاصل في: تعليل ترك المحاسبى ميراثه من أبيه ثلاثة أقوال:

أولها: أن سبب تركه هو اختلاف المذهب: لأنه كان معتزلياً –كما ذكر البغدادي ومن رضى قوله– أو لأنه كان واقفياً.

---

(١) – أستاذ السائرين د/ عبد الحليم محمود ص ٩.

(٢) ومما يدل على تحامل البغدادي على المعتزلة أنه نقل كلام ابن الرواندي، ونسبه إليهم وقد أعددت بحثا في تحقيق ذلك بعنوان: الأقوال التي أخذها البغدادي عن ابن الرواندي د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجاني موسى منشور بمجلة كلية دار العلوم جامعة المنيا عدد (١٧) سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٣) – تهذيب الكمال للمزى: يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبي الحجاج المزي تحقيق د. بشار عواد معروف– باب ذكر من اسمه الحارث ج٥/ ٢٠٩،٢١٠ – نشر: مؤسسة الرسالة –بيروت الطبعة الأولى١٤٠٠ – ١٩٨٠.

(٤) –تاريخ بغداد للخطيب ٩/ ١١٠ ترجمه رقم ٤٢٨٣ بعنوان: ذكر من اسمه الحارث –تحقيق بشار عواد –نشر دار الغرب

(٥) – حلية الأولياء ١٠/ ٧٥.

(٦) – ترجمة الحارث من سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠ ترجمة رقم (٣٥).

الثاني: أن تركه كان ورعـًا منه ومبالغة منه في طلب الحلال والبعد عن الشبهات. وهو ما أميل إليه وأُرَجِّحه، لأنه يتفق مع حال الصوفية فضلاً عن خواصهم وكبرائهم المقدمين فيهم كالحارث المحاسبى.

والثالث: أنه تركه زهداً في الدنيا عزوفـًا عن متاعها، ليتفرغ للعبادة ولا ينشغل بحطام الدنيا عن الدين وإثاراَ للآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وهو ما مال إليه د/ عبد الحليم محمود حيث يقول: "لكن المحاسبى فيما يبدو امتنع عن ذلك، لمجرد الورع، والزهد فيما تجُرُّه الثروة وتستتبعه من تفكير فيها، وتدبير لها، وتنمية وحفظ"(١)، فجعل الزهد مع الورع معـًا علة في الترك. وإن كان بينهما فرق دقيق. وحقـًا فقد كان الحارث المحاسبي كذلك فنجده يقول: فقدنا ثلاثة أشياء، لا نكاد نجدها إلى الممات: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة(٢).

ومما يدل على ورعه وزهده في الدنيا ما ورد في جواب عن سؤال وُجِّهَ إليه مفاده أنَّه سُئل: "ما تفسير (خير الرزق ما يكفي) قال: هو قوتُ يومٍ بيومٍ، ولا يهتمَّ لرزقِ غَدٍ".(٣)، ورُوى عن الحارثِ المحاسبي أيضـًا أنه قال: العلم يورث المخافة، والزهد يورث الراحة، والمعرفة تورث الإنابة، وقال الحارث أيضـًا: من صحَّحَ باطنَه بالمراقبة والإخلاص، زينَ اللهُ ظاهرَه بالمجاهدة واتباع السنة لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"(العنكبوت/ ٦٩).

سادساً: مذهبه .

يعتبر الحارث المحاسبى من متكلمي السلف وأهل السنة، أو أهل الحديث، وقد صرح البغداديُ بتلك النسبة قائلاً: "قال المتقدمون من متكلمي أهل الحديث: كعبد الله بن سعيد، والحارث المحاسبي،.... وأبى سعيد القلانسي"(٤).

وقال الشهرستانى: "وكانت بين المعتزلة وبين السلف في كل زمان اختلافات في الصفات،

(١) – أستاذ السائرين ص ٩.

(٢) – حلية الأولياء ١٠/ ٧٥. في تاريخ بغداد للخطيب بلفظ:(ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة) ٩/ ١١٢ترجمة رقم ٤٣٣٠.

(٣)– تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/ ٣٥٦ –نشر دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، وحلية الأولياء ١٠/ ٧٥.

(٤)– أصول الدين للبغدادي ص٢٥٤، ٢٥٥.

وكان السلفُ يناظرونَهم عليها، لا على قانونٍ كلامي، بل على قولٍ إقناعي، ويُسَمَّون بالصفاتية.....، وكان عبدُ الله بن سعيد الكلابي، وأبو العباس القلانسي، والحارثُ المحاسبى أشبهَهُم اتقَانًا، وأمتَنَهُم كلامًا"[1]

ويشير الشهرستانى في موضع آخر الى مذهب الحارث المحاسبى عندما تحدث عن المراد بالصفاتية وأصنافهم فيقول: "أما السلفُ الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تَهَدَّفوا للتشبيه، فمنهم: مالك بن أنس....حتى انتهى الزمانُ الى: عبد الله بن سعيد الكلابي[ت ٢٤٠هـ]، وأبى العباس القلانسي[٢١٣هـ][2]، والحارث بن أسد الله المحاسبى [ت٢٤٣هـ]، وهؤلاء كانوا من جملة السلف، إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائدَ السلف بحُجج كلاميّة، وبراهين أصولية، وصنّف بعضُهم، ودرَّس بعضٌ، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري، وبين أستاذة مناظرة، في مسألة من مسائل الصلاح والأصلح، فتخاصما، وأنحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيَد مقالتَهم بمناهجَ كلاميَّة، وصار هذا مذهبًا لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سِمَةُ الصفاتية الى الأشعرية"[3]

نأخذ من هذا النص: أنّ من جملة السلف جماعةٌ اشتغلوا بعلم الكلام، وهؤلاء الجماعة يطلق عليهم: الكلابية، وأشهرهم ثلاثة: ابن كُلَّاب، والمحاسبي، والقلانسي، وهؤلاء أسبق من الأشعري والأشعرية، ثم ظهرت فرقةُ الأشعرية تقتفى أثرَ السلف، وتنهج نهج الكلابية.

والخلاصة: أنه يمكن أن نطلق على هؤلاء الأعلام الثلاثة –والحارثُ المحاسبى منهم– اسم: الكلابية، أو الصفاتية، وهم منسوبون الى السلف وأهل السنة.

وأمَّا عن مذهبه الفقهي في الفروع، فهو شافعي المذهب بلا شك، والدليلُ على ذلك أنّ

---

(١) – الملل والنحل للشهرستاني في المقدمة الرابعة ص ٢٤.

(٢) – لا يوجد نص في تحديد سنة وفاته، والظاهر أنه توفى بين سنة (٣١١هـ) و (٣٢٤هـ). وقد حققتُ ذلك في بحث لي بعنوان: القلانسي حياته وآراؤه الكلامية منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر عدد ٢٠١٥م. https://bfsa.journals.ekb.eg/article_9055.html

(٣)– الملل والنحل للشهرستاني بتحقيق صديق جميل العطار ص ٧٥.

المؤرخين ترجموا له ضمن طبقات الشافعية، وهو ما فعله ابن قاضى شهبة، وابن كثير، والسبكىّ[١]

سَابِعًا: أقوالُ العُلَمَاءِ فيه.

ذكرَتْ كتبُ التراجم التي تناولت الحارث المحاسبى عبارات كثيرة في فضله والثناء عليه مما يدل على منزلته العالية، وأثره البالغ فقد أثنى العلماءُ عليه قديمًا وحديثًا وهذا طَرَفٌ من أقوالهم فيه وثنائهم عليه:

قال عنه الإمام القشيري: "عديم النظير في زمانه علمًا وورعًا ومُعامَلة وحَالاً".[٢]

قال عنه السبكي: "الحارث بن أسد المحاسبى أبو عبد الله عَلَمُ العارفين في زمانه وأستاذ السائرين الجامعُ بين علمي الباطِن والظَاهر شيخُ الجنيد".[٣]

ونقل السبكي قولَ ابنِ الصلاح فيه بقوله: "قال ابن الصلاح ذَكَرَهُ الأستاذُ أبو منصور في الطبقة الأولى فيمن صحِب الشافعي، وقال: كان إمامَ المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث، والكلام، وكُتُبُه في هذه العلوم أصولُ مَنْ يصنفُ فيها، وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية، ثم قال: لو لم يكن في أصحاب الشافعي في الفقه، والكلام، والأصول، والقياس، والزهد والورع، والمعرفة إلا الحارث المحاسبى، لكان مُغبَّراً في وجوهَ مخالفيه، والحمدُ لله على ذلك"[٤].

قال عنه المُزِّيُّ : "الحارثُ بن أسدُ المحاسبي: أبو عبد الله الزاهد البغدادي أحد الأئمة المشهورين"، ثم يروى لنا المزى قولَ الخطيب عن المحاسبى قائلاً: "قال الحافظ أبو بكر الخطيب كان عالمًا فَهِمًا، وله مصنفاتٌ في أصول الديانات، وكتب في الزهد، وقال في موضع آخر: أحد من اجتمع له الزهدُ، والمعرفةُ بعلم الظاهر والباطن".[٥]

---

(١) – طبقات الشافعية لابن شهبة ١/ ٥٩، وطبقات الشافعيين لابن كثير ١/ ١٢٦، وطبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٥.

(٢) – الرسالة القشيرية في علم التصوف للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (٤٦٥)ص ٢٠ نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة ١٣٨٣ه/ ١٩٦٦م.

(٣) – طبقات الشافعية الكبرى للتاج الدين السبكي ٢/ ٢٧٥، وسير أعلام النبلاء حاشية المحقق رقم (١) ج ١٢/ ١١٠.

(٤) – طبقات الشافعية الكبرى للتاج الدين السبكي ٢/ ٢٧٥.

(٥) – تهذيب الكمال ٥/ ٢٠٨، وتاريخ بغداد للخطيب ٩/ ١٠٤ ترجمه رقم ٤٣٣٠ بعنوان: ذكر من اسمه الحارث.

قال عنه الذهبي: المُحَاسِبِيُّ كَبِيْرُ القَدْرِ، وقَد دَخَلَ فِي شيءٍ يَسيرٍ مِنَ الكَلامِ". [١] يعنى من علم الكلام.

وقال عنه ابنُ الأعرَابِيِّ: "تَفَقَّهَ الحَارِثُ، وكَتَبَ الحَدِيثَ، وَعَرَفَ مَذَاهِبَ النُّسَّاكِ، وَكَانَ مِنَ العِلْمِ بِمَوْضِعٍ، إِلاَّ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي مَسأَلَةِ اللَّفظِ، ومَسأَلَةِ الإِيمانِ"[٢]. وهى من المسائل الكلامية.

قال عنه ابن النديم: من الزهَّاد المتكلمين على العبادة والزُهد في الدنيا والمواعظ، وكان فقيهًا مُتكلِّمًا مُقَدَّمًا"[٣].

وقيل عنه: له مصنفاتٌ، ورواياتٌ، يوصفُ بالوَرَع".[٤]

وقيل عنه أيضًا: "أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي كان عَديمَ النظير عِلمًا وورعًا ومعاملةً، وكان بصريَّ الأصلِ، توفي ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين وله كُتُبٌ في الحقيقة".[٥]

وقال عنه أبو نُعَيم: "المُشَاهِدُ المُرَاقِبِيّ والمُسَاعِد المُصاحِبِيّ أبو عبدِ الله الحارثُ بنُ أسد المحاسبيُّ، كان لأَلْوَانِ الحَقِ مشاهداً ومراقبًا، ولآثارِ الرسول عليه السلام مساعِداً ومصاحِبًا، تصانيفُه مُدونَةٌ مَسطورةٌ، وأقوالُه مُبوَّبةٌ مشهورةٌ، وأحوالُه مُصَحَّحَةٌ مذكورةٌ، كان في علم الأصول راسِخًا وراجِحًا، وعن الخَوض في الفُضُول جَافِيًا وجَانِحًا، وللمخالفين الزائغين قَامِعًا وناطِحًا، وللمُريدين والمُنيبين قابلاً وناصِحًا، وقيل: إنَّ فعلَ ذوي العقولِ الأخذُ بالأصول، والتركُ للمفضول، واختيار ما اختاره الرسول صلى الله عليه و سلم..... وقال عنه أيضًا: "هو البحرُ العَميق"[٦].

وكان تلميذه الجنيد -الذي لقب بشيخ الطائفة- يَعُدُّ الحارثَ من الأكابر، فقد رُوِى عنه أنّه

---

(١) - سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠ ترجمة رقم (٣٥).

(٢) - سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠ ترجمة رقم (٣٥).

(٣) - الفهرست لابن النديم م/ ٢٣٦ المقالة الخامسة من الفن الخامس في أسماء المصنفين من الزهاد والمتصوفة.

(٤) - إكمال الكمال لابن مكولا ج٧/ ٣١١.

(٥) - السلوك في طبقات العلماء والملوك لبهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي توفى قبل سنة ٧٣٢هـ تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي ٢/ ٣٥٥ نشر مكتبة الإرشاد صنعاء اليمن - سنة ١٩٩٥م.

(٦) - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم -ترجمة(٤٦٥) ١٠/ ٧٤، ٨٨.

كان: رحمة الله عليه يقول: صَحِبتُ خمسَ طبقاتٍ من الناس الأكابرِ: أولُهم: أبو الحسن سَرِي، وحَارِث بنَ أسد...ونُظَرَائهم في السِنِ والمَكَان"[١]

قال عنه الإمام الشعراني: هو من علماء مشايخ القوم، بعلوم الظاهر، وعلوم الأصول، وعلوم المعاملات، له التصانيفُ المشهورةُ، عديمُ النظير في زمانه، وهو أستاذُ أكثرِ البغداديين، وإنْ كان بصريّ الأصل"[٢]

وروى السبكي لنا: "قول الأستاذ عبد الله بن خفيف الصوفي: اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سَلِمُوا إليهم أحوالَهم: الحارثُ بن اشد المحاسبى، والجنيدُ بن محمد، وأبو محمد بن رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي؛ لأنهم جمعوا بين العِلم والحقائق:"[٣]

وكل تلك النقول من أقوال العلماء عن الحارث المحاسبى، تدل دلالة واضحة على منزلته العالية الرفيعة، فهو من العلماء البارزين في شتى العلوم والمعارف، لم يقف عند فن واحد منها، بل توغل فيها كلها، حتى اقتحم غمار علم الكلام، وهو قدوة القاصدين والمريدين، جمع بين علم الظاهر والباطن، ودخل في بعض مسائل علم الكلام، وساهم فيها بآراء معتبرة كانت امتداداً للسلف، وزاداً لمن جاء بعده من أهل السنة.

ثامناً: الأثر الفكري للحارث المحاسبى.

يتجلى أثر المحاسبى فيمن جاء بعده بوضوح في الجانب الصوفي فقد كان له أثره الواضح على الجنيد وعلى حجة الإسلام الإمام الغزالي، ويشير د/ عبد الحليم محمود الى ذلك الأثر في الجنيد بقوله: "لم يكن الجنيد بدعًا في عالم التصوف، فأستاذه الحارث بن أسد المحاسبي، لم يكن له في زمانه نظير له في علمه"[٤] وقد سبق الحديث عن الجنيد كأحد تلاميذ المحاسبى بالتفصيل.

---

(١)- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمرى ٢٠/ ٢٧١ في ترجمة: سعد بن عبد الله البزاز ترجمة رقم:(٢٤٢٠) - نشر دار الفكر بيروت لبنان - ١٤١٥/ ١٩٩٥م.

(٢) - الطبقات الكبرى للشعرانى ١/ ٦٤ نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة بدون تاريخ.

(٣) - طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٢٧٦.

(٤) - بشر بن الحارث الحافى(المحدِّث الثقة)د/ عبد الحليم محمود ص ٢٩- الدار المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة ط(٢) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ويشير د/ عبد الحليم محمود الى أثر المحاسبى في الإمام الغزالي بقوله: "والواقع أنَّ الغزالي يقدِّر المحاسبى حقَ قَدْره، وقد قرأ كتبَه، وهو يستشهدُ بالكثير من نصوصها في كتابه إحياء علوم الدين.... لا يمكن إنكار أثر المحاسبى في الغزالي، والغزالي نفسُه يعترف بذلك ولا ينكره"(١)، ويؤكد أثر كتب المحاسبى في الغزالي بقوله: "ومؤلفاتُه كثيرةٌ متنوعة، وكلُها في مستوى سامٍ، حتى لقد كانت من المصادر الرئيسية التي أفادت الإمامَ الغزالي، وأثَّرَتْ فيه"(٢)

وأما أثره كأحد المتكلمين فقد صرَّح المؤرخون للمحاسبي بأثره في الإمام الأشعري، وأنّه اقتدى بطريقة المحاسبى فيما يتعلق بالبحث في العقائد الإسلامية، حتى قال عنه كلٌ من: ابن قاضى شهبة، وابن كثير، والسبكي: "وإليه [أي إلى الحارث] يُنْسَبُ أكثرُ متكلمي الصفاتية".(٣)

ويشير الشهرستانى الى أثر مذهب ابن كُلَّاب، وصاحبيه الحارث المحاسبى، والقلانسي، عندما تحدث في المقدمة الرابعة عن المراد بالصفاتية وأصنافهم فيقول: "أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل، ولا تَهَدَّفوا للتشبيه، فمنهم: مالك بن أنس....حتى انتهى الزمان الى: عبد الله بن سعيد الكلابي، وأبى العباس القلانسي، والحارث بن أسد الله المحاسبى [ت٢٤٣هـ]، وهؤلاء كانوا من جملة السلف، إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائدَ السلف بحُجج كلاميّة، وبراهين أصولية، وصنّف بعضُهم، ودرَّس بعضٌ، حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري، وبين أستاذة مناظرة، في مسألة من مسائل الصلاح والأصلح، فتخاصما، وأنحَازَ الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيَد مقالتَهم بمناهجَ كلاميَّة، وصار هذا مذهبًا لأهل السنة والجماعة، وانتقلت سِمَةُ الصفاتية الى الأشعرية".(٤)

نأخذ من هذا النص: أنّ من جملة السلف جماعةٌ اشتغلوا بعلم الكلام، وهؤلاء الجماعة يطلق عليهم: الكلابية، وأشهرهم ثلاثة: ابن كُلَّاب، والمحاسبي، والقلانسي، وهؤلاء أسبق من الأشعري والأشعرية، وكان من منهجهم تأييد عقائد السلف بالطُرُق العقليّة الكلاميّة، ثم انحاز إليهم الأشعري

(١) – أستاذ السائرين د/ عبد الحليم محمود ص٥٤، ٥٥.
(٢) – بشر بن الحارث الحافى د/ عبد الحليم محمود ص ٢٩.
(٣) – طبقات الشافعية ١/ ٥٩، وطبقات الشافعيين ١/ ١٢٦، وطبقات الشافعية السبكي ٢/ ٢٧٥.
(٤)– الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٤، ٧٥.

بعد رجوعه عن الاعتزال، وظهرت فرقةُ الأشعرية تقتفى أثرَ السلف، وتنهج نهج المدرسة الكلابية. وتأمل عبارة الشهرستانى: (وانتقلت سِمَةُ الصفاتية الى الأشعرية) فإنها تدل على أن الأثر كان كبيراً. ثم هو يصرح بأنّ الأشعري اقتفى أثرَهم، وتأمل معي عباراتِ الشهرستانى: (وهؤلاء كانوا من جملة السلف.... وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية.... وانحاز الأشعري الى هذه الطائفة، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهبًا لأهل السنة والجماعة)، فلكل عبارة من تلك العبارات دلالة واضحة على ما كان للكلابية والحارث من أثر بالغ.

ويؤكد ذلك ما جاء في تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري على كلام ابن عساكر عن القلانسي بقوله: "بل هو متقدم على الأشعري، من حيث الذَبّ عن السنة، وأعْلَى طبقةً منه، وكان لسانَ السُنَّة قبل رجوع الأشعري عن الاعتزال... والأشعري تأخرَ عنه ذَبًّا عن السُنَّة"[1].

ويروى صاحب تاريخ بغداد أن: "عليًا بن شاذان ذكرَ يومًا كتابَ الحارث المحاسبى في الدِماء، فقال: على هذا الكتاب عَوَّلَ أصحابُنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة"[2]، ومشكلة الدماء هذه اتصلت بمسألةٍ كلامية كان لها أكبر الأثر في علم الكلام، وهى مسألة حكم مرتكب الكبيرة، وما أُثير حولَها من جدل ممتد. فهذه أدلةٌ متعددةٌ على الأثر الفكري الممتد للحارث المحاسبى فيمن جاء بعده من العلماء.

تَاسِعاً: روايةُ الحارثِ للحَديثِ النبوي.

تشير كتبُ التراجمِ الى أنّ المحاسبى قد روى الحديثَ النبوي الشريف، وذلك شأنُ أكثر رجال التصوف الحق، ولا عجب في ذلك، فقد أُثِر عن الجنيد في ذلك الشأن قولُه: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يُقتَدى به في هذا الشأن؛ لأن عِلْمَنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسنة، وقال أيضاً: عِلمُنا هذا مُشَيَّدٌ بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم).[3]

---

(١) – حاشية تبيين كذب المفتري فيما نُسب الى الإمام أبي الحسن الأشعري تأليف أبي القاسم على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ) ص ٣٩٨ طبع بعناية حسام الدين المقدسي- نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

(٢) – تاريخ بغداد ٩/ ١٠٥.

(٣) – بشر بن الحارث الحافي د/ عبد الحليم محمود ص ٢٨،٢٩.

بل نجد علماء الرجال من المحدِّثين يشيرون الى طبقته في الرواية فقد قال عنه صاحبُ تقريب التهذيب في بيان طبقته من أهل الحديث ودرجة حديثه: الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد المشهور أبو عبد الله البغدادي صاحب التصانيف مقبول [الحديث] من الحادية عشرة"[١] وهذا دليلٌ على توثيقهم له، ودليلٌ على عدالته، وإلا لذكروه في الضعفاء أو المجروحين.

ويروى الذهبي أنَ الحارثَ كَتَبَ الحديثَ بقوله: "قَالَ ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: تَفَقَّهَ الحَارِثُ، وَكَتَبَ الحَدِيْثَ، وَعَرَفَ مَذَاهِبَ النُّسَّاكِ، وَكَانَ مِنَ العِلْمِ بِمَوْضِعٍ"[٢]. فهذا دليلٌ على أنه كان له عناية بالسنة، وكتابة الحديث، وروايته، وإنْ كان مُقِّلاً فيه، وليس كأهل الحديث، لكن على وجه الإجمال كانت له عناية به وهو ثقة في روايته، فلم يجرحه علماء الجرح والتعديل، وقد نصَّ ابنُ حجر على أنَّه مقبولُ الحديث وأشارَ إلى طبقته الحادية عشر، وذكره بكنيته، ونِسْبَته، ووصفه بالزهد والورع قائلاً: "الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد المشهور: أبو عبد الله البغدادي صاحب التصانيف مقبولٌ من الحادية عشرة مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين". [٣] وهذا دليل تقديره له وثنائه عليه.

وقد اعتنى المحاسبى بالحديث النبوي الشريف فقد "روى الحارثُ عن يزيد بن هارون وطبقته، روى عنه أبو العباس بن مسروق وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي والشيخ الجنيد وإسماعيل بن إسحاق السراج وأبو على الحسين بن خيران الفقيه وغيرهم".[٤] فهذا يدل على مدى عنايته بالحديث وروايته له وهو فيه عدل مقبول الرواية.

عَاشِراً: موقفُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل من المُحاسبيِّ.

يعتبر الإمام أحمد بن حنبل من أبرز علماء الإسلام وهو أحد فقهاء المذاهب الأربعة الكبرى في الشريعة الإسلامية، وهو من أبطال الإسلام الذين صمدوا في وجه المعتزلة وصبر على الأذى

(١) – تقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ) تحقيق محمد عوامة (تراجم حرف الحاء) ترجمه الحارث رقم:(١٠٠٩) ١/ ١٤٥–نشر دار الرشيد سوريا ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٢) – سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٢.

(٣) – تقريب التهذيب ١/ ١٤٥.

(٤) –طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٢٧٦.

والسجن، ولذا كان لأي كلام يروى عن الإمام أحمد تجاه أي شخص -مهما عَلَتْ منزلتُه- أثرٌ كبير عليه إيجابًا وسلبًا ومدحًا وقدحًا، وهو ممن عاصر الحارث المحاسبى وكان له كلام فيه وموقف منه....، إلا أن موقف الإمام من المحاسبى يحتاج لوقفة متأنية لمحاولة فهمه بدقة.

وأول ما يواجهنا هنا الرواية المشهورة عن الإمام أحمد بن حنبل التي جاء فيها أن: "الضبعي يقول: سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول: قال لي أحمد بن حنبل يومًا: يبلغني أنَّ الحارثَ هذا -يعني: المحاسبي- يكثِرُ الكونَ عندَك، فلو أحضرتَه لمنزلك، وأجلستني من حيث لا يراني، فاسمعَ كلامَه؟ فقلتُ: السمعُ والطاعةُ لك يا أبا عبد الله، وسرَّنِي هذا الابتداء من أبي عبد الله؛ فقصدتُ الحارثَ، وسألتُه أنْ يحضُرَنا تلك الليلةَ فقلتُ: وتسألُ أصحابَك أنْ يحضروا معك، فقال: يا إسماعيل فيهم كَثرَةٌ، فلا تَزِدْهُم على الكسب والتمر، وأكثِرْ منهما ما استطعتَ، ففعلتُ ما أمرني به، وانصرفتُ إلى أبي عبد الله[أحمد بن حنبل] فأخبرته، فحضرَ بعد المغرب، وصعدَ غرفةً في الدار، فاجتهد في وِردِه إلى أنْ فرَغَ، وحَضرَ الحارثُ وأصحابُه، فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العَتَمَة، ولم يُصَلّوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث، وهم سكوت، لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل، فابتدأ واحدٌ منهم، وسأل الحارثَ عن مسألة؛ فأخَذَ في الكلام، وأصحابُه يستمعون، وكأن على رؤوسهم الطير، فمنهم: من يبكي، ومنهم: من يزعق، وهو في كلامه، فصَعَدتُ الغرفةَ لأتعَرَّفَ حالَ أبي عبدِ الله؛ فوجدتُه قد بكَى حتى غُشِيَّ عليه، فانصرفتُ إليهم، ولم تزل تلك حالُهم حتى أصبحوا، فقاموا، وتفرقوا، فصعدتُ إلى أبي عبد الله، وهو مُتغَيِّر الحال فقلت: كيف رأيتَ هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما اعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم!! ولا سمعتُ في علم الحقائق مثلَ كلامِ هذا الرجل!! وعلى ما وصفتُ مِن أحوالهم فانّي لا أرَى لَكَ صُحبتَهم، ثم قام، وخرج".[1]

وهنا نلاحظ هذا التخصيص الوارد في تحذير الإمام أحمد كلمة: (لَكَ) فذلك دليل التخصيص

(١) - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ترجمة رقم (٤٢٨٣) ٩/ ١٠٩، ١١٠، وانظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - تحقيق على البجاوي ١/ ٤٣٠ رقم ١٧٠٧ - نشر دار المعرفة بيروت لبنان، وذكرها الذهبي أيضًا عند ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٢٧ ترجمة رقم ٧٨. وطبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٨٩ ترجمة رقم ٦٥.

بالمخاطب؛ لأمر يعلمه الإمامُ أحمدُ من شأنِ هذا الرجل المخاطب بقوله): لك)، ولو أراد التعميم لحذفها، وقال: لا أرى صحبتَهم -أي مطلقًا- فتَوْجِيه الخطابِ إلى السائل بكاف الخطاب: (لك) دليلٌ تخصيصه به وحَدَه، وهى قرينة تنفى العمومَ، وتُخصِّص الخطابَ بمن توجَّه إليه الكلام؛ يؤكد ذلك الفهم ما قاله السبكي تعليقًا على تلك الرواية، وتعليلاً لنهيه الرجلَ عن صحبتهم: "واعلم أنّ أحمدَ بنَ حنبل إنّما لم يرَ لهذا الرجل صحبتَهم؛ لقصورِه عن مقامهم؛ فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كلُ أحد، فيُخَاف على سَالكه، وإلَّا فأحمدُ قد بَكَى"(١)، وفى نفس السياق يشير السبكي الى رواية أخرى لقول الإمام أحمد يدل على الاستحسان لحال الحارث بقوله: "وفى رواية أخرى أنّ أحمدَ قال: لا أُنكر من هذا شيئًا"(٢) مما سمعته من الحَارث تلك الليلة، إذن فلم ينكر الإمامُ على الحارث شَيئًا، وإنّما نصَح الرَجلَ بما يَراه أصْلَحَ له وأنسب لحالة.

وقد يكون المراد من نهى الإمام أحمد هو كراهيته للخوض في مسائل علم الكلام والجدل حولها، ومهم جداً أنْ نلاحظ أنَّ الخطيبَ البغدادي: قد استهل هذه الرواية قبل ذكرها بقوله: "قُلْتُ: وكان أحمدُ بن حنبل يكْره لحارث نَظَرَه في الكلام، وتصنيفَه الكتبَ فيه، ويصدُ الناسَ عنه"(٣) فهي تدل على كراهية الإمام للجدل في مسائل علم الكلام بوجه عام، والتصنيف فيه، حتى لو كان الهدف متجهًا للرد على المخالفين -وهو ما فعله الحارث حقًا- ولعل سبب كراهيته لذلك ما كان من المحنة التي حلَّت بالإمام أحمد نفسه جَرَآء الخلاف في مسألة الكلام إبَّان سَطْوَة المعتزلة. فالكراهيةُ ليست متَّجِهَةً الى شخص المحاسبى، أو علمِه، أو حالِه، وإنّما من معالجته للمسائل الكلامية والتصنيف فيه؛ لأنه كما تُصرِّح الروايةُ كان يَصُدُّ الناسَ عنه -أي عن الجدل في المسائل الكلامية.

ومما يؤكد هذا أننا نجد السبكي بعد يقدم لهذه الرواية بمقدمة رائعة في وجوب الوقوف على حد الأدب مع العلماء المتقدمين يقول بعدها : "إذا عرفت ذلك فاعلم، أن الإمام أحمد -رضى الله تعالى عنه- كان شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام؛ خوفًا أنْ يجُرَّ ذلك الى ما لا ينبغي، ولا

(١) - طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٨٩ ترجمة رقم ٦٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) - تاريخ بغداد ٩/ ١٠٩، ١١٠.

شك أنّ السكوتَ عنه -ما لم تدعُ الحاجةُ إليه- أولَى، والكلامُ فيه -عند فَقْدِ الحاجةِ- بدعةٌ، وكان الحارثُ قد تكلم في شيء من مسائل الكلام، قال أبو القاسم النصرآبادى: بلغني أنَّ أحمدَ بن حنبل هَجَرَه بهذا السبب، والظنُ بالحارثِ أنَّه إنَّما تكلَّم حين دَعَتْ الحاجةُ، ولكل مقصده، والله يرحمهما"[١] فالإمام يكره الكلام في ذلك خوفا مما ينتج عنه وسداً للذرائع.

ومن جهة أخرى نجد من الروايات ما يشير الى أن الذي كرهه الإمام أحمد هو أسلوب الجدل الفلسفي في مسائل الكلام خاصة، وليس مطلق الكلام، ودليل ذلك ما رواه د/ عبد الحليم محمود عن أحد المستشرقين بقوله: يقول الأستاذُ ماسينيوس عن المحاسبى: ومنذ عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م اضْطُرَ المحاسبيُّ إلى التوقف عن التدريس؛ بسبب رَدِّ الفعلِ العنيف الذي كان يُحَرِّمُ كُلَّ اتصال بعلم الكلام، ولو جاء الأمرُ من رجال مثل المحاسبى [الذى] لم يَلْجَأ لأساليب المعتزلة في المنطق والجدل إلا ليُقَاوِمَهم"[٢]، فهذه الرواية تفيدنا أنّ الكراهيةَ إنما كانت لأسلوب الحارث فقط، ولم تتجه لشخصه أو لعلمه، بل لأسلوبه في الجدل الذي كان يشبه أساليب المعتزلة، رغم أنَّ الحارث لم يستخدمها إلا ليَرُدَّ عليهم بأساليبهم الجدلية، وكان الإمام يكره الجدل عامة، ويصد الناس عنه؛ لما تسبب فيه هذا الجدل من المحن والنوائب، وامتثالاً لنهى النبي -صلى الله تعالى عليه وعلى أله وصحبه وبارك وسلم- بالبعد عن الجدل؛ لأنه سبب الفرقة والضلال، وكان هذا المسلك هو توجه أصحاب الحديث عامة وسنتهم.

ويوضح ذلك ما قاله الذهبي: "المحاسبيُّ كبيرُ القَدْرِ، وقد دخل في شيءٍ يسيرٍ من الكلام؛ فَنُقِمَ عليه، وَوَرَدَ: أنَّ الإمام أحمَدَ أثنى على حال الحارث من وَجهٍ، وحَذَرَ منهِ".[٣] من وجه آخر، فالإمام أحمد بن حنبل من النباهة والفطنة بمكان يجعله يفرق ويميز بين الأمور، فينكر المنكر، ويثنى على المعروف النافع، ولا يُعَمِّم الأمورَ.

وكان "أصل دخول الحارث المحاسبى في الكلام، كان في مضمار الرد على المعتزلة والرافضة

(١) - طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩ ترجمة رقم ٦٥.

(٢) - أستاذ السائرين ص ٤٣.

(٣) - سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١١.

وغيرهما من الفرق، فيتطرق إلى شُبُهَاتهم وتفنيد أفكارهم ومناظرتهم، وكان من هدى أهل الحديث: هجر تلك الفرق وإهمالهم، والنصح بعدم مجالستهم"[١]، وعليه فالدافع للدخول الحارث في الكلام ولإنكار ذلك عليه كان سببه: اختلاف المنهج والطريقة، واختلاف مواقف العلماء من أهل البدع بين الإهمال، والرد على شُبهاتهم.

والخلاصة: أنه من خلال النصوص السابقة يمكن تفسير ما رُوِى عن الإمام أحمد تجاه المحاسبى بأحد ثلاثة وجوه:

- الأول: أن ذلك كان توْجِيها خاصاً للسائل بما يناسب حالَه، فهو لا يطيق مسلك الصوفية الوعر.
- الثاني: كراهية استخدام الجدل الفلسفي حتى لو كان للرد على المعتزلة بنفس أسلوبهم.
- الثالث: النهى عن الدخول في المسائل الكلامية، مالم تكن هناك ضرورة إليها.

حادي عَشَر: موقِفُ أبي زُرْعَةَ الرازي من المحاسبى.

باعتبار أنَ الإمامَ أبا زُرْعَة الرازي (ت٢٦٤هـ) من المُحَدِّثِين[٢]، فقد كان موقفُه رافِضاً ومُعادياً لعلم الكلام مطلقاً، وعليه ستجد حكمَه على المحاسبى كمتكلم شديداً قاسياً، حيث يعتمد المحدثون -رحمهم الله تعالى- على النص، وينفرون من الرأي والجدل العقلي -الذي هو من أدوات المتكلمين- لذا رُوِى عن أبي زرعة الرازي أنه سُئِلَ عَنِ المُحَاسِبِيِّ وَكُتُبِه، فَقَالَ للسائل: إِيَّاكَ وَهَذِهِ الكُتُبَ، هذه كُتُبُ بِدَعٍ وضلالاتٍ، عَليكَ بِالأَثَرِ تَجدْ غُنْيَةً، هَلْ بَلَغَكُم أَنَّ مَالِكاً، وَالثَّوْرِيَّ، وَالأَوْزَاعِيَّ صَنَّفُوا فِي الخَطَرَاتِ وَالوَسَاوِسِ؟ مَا أَسرعَ النَّاسَ إِلَى البِدَعِ![٣].

قولُ أبي زرعة: (هذه كتب بدع وضلالات) قولٌ شديدٌ قاسٍ، لكن ينبغي فهمُه في سياقه ولا

---

(١) - بدء من أناب الى الله تعالى للحارث المحاسبى - تحقيق/ مجدي فتحي السيد -مقدمة المحقق ص١١ - نشر دار السلام للطباعة والنشر بالأزهر بالقاهرة ط (١)١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٢) - أبو زرعة الرازي هو: الإمام سيد الحفاظ عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ: مُحَدِّث الرِّي، مولدُه بعد نيف ومائتين، يروى أنه قد حلف رجلٌ بطلاق امرأته: أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قومٌ إلى أبي زرعة، فسألوه فقال أبو زرعة: ليمسك امرأته، فإنها لم تطلق عليه، توفي أبو زرعة بالري يوم الإثنين آخر يوم من سنة أربع وستين ومائتين (٢٦٤هـ) - سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٦٦.

(٣)- سير أعلام النبلاء للذهبي١٢/ ١١٢. وتاريخ بغداد ٩/ ١١٠.

يصحُّ الاستشهادُ به مقطوعـًا عن سياقه، فيجب أن نلاحظ هنا سياق قولَ الرازي: (عليك بالأثر تَجِدْ غنيةً، هل بلغَكم أنّ الإمامَ مالكـًا، والثوري، والأوزاعي صنفوا في الخطرات والوساوس) فهذا القول من الرازي يفهم منه أنه يحث الناسَ على الاعتناء بالسنة والأثر، والبعدِ عن الرأي والجدل العقلي، وأنه يستند في ذلك الترغيب الى أسماء علماء أجِلَّاء من المتقدمين اشتهروا بالعناية بالسنة والأحكام الشرعية العملية، فالإمام مالك ،الثوري، والأوزاعي من الفقهاء المحدثين، وقد اعتنى هؤلاء بالكتابة في الفقه والسنة، ولم يعتنوا بالتأليف في غيرها من العلوم، رغم حصولهم على قدرٍ كبيرٍ من تلك العلوم، وغيرها، لكنهم لم يؤلفوا فيها، بل قصروا عنايتهم على السنة والشريعة، وتأمل قوله: عَلَيْكَ بِالأَثَرِ تَجِدْ غُنيَةً، أي أنك تجد فيها الغنى والكفاية عن غيره، ثم نجده يختم كلامَة بسؤالٍ تعَجُّبِيّ وتعْجِيبِيّ، وهو أمرٌ عامٌ يشترك فيه الناسُ جميعـًا، وليس أمراً خاصـًا بالمتكلمين أو الصوفية، بل هو من أمرِ العوام في مسارعتهم الى نشر الغرائب والعجائب وهو يتعجب ويُعَجِّبُ السامعَ من هذا الصنف من الناس فقال: ما أسرع الناس الى البدع!!؟

وفى كتاب ميزان الاعتدال للذهبي جاءت الرواية هكذا: "عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك. قيل له: في هذه الكتب عبرةٌ. فقال: مَنْ لم يكن له في كتاب الله عِبرةٌ، فليس له في هذه الكتب عبرةٌ،..... وأين مثلُ الحارث، فكيفَ لو رَأى أبو زرعة تصانيفَ المتأخرين كالقوت لابي طالب؟ وأين مثلُ القوت! وكيفَ لو رَأى بهجةَ الأسرار لابن جهضم، وحقائقَ التفسير للسُلمى؟ لطَارَلُبُّهُ، كيفَ لو رَأى تصانيفَ أبي حامد الطوسي في ذلك على كثرة ما في الإحياء من الموضوعات. كيفَ لو رَأى الغنية للشيخ عبد القادر! كيفَ لو رَأى فصوصَ الحكم والفتوحاتِ..... نسأل الله العفوَ والمُسَامَحَةَ آمين"(١)

ونلاحظ في هذه الرواية أنّ أبا زُرعةَ لما راجَعَهُ السَائلُ بأنَّ في كتب المحاسبى عِبْرَةً، أجابَ بقَصْرِ العبرةِ على كتاب الله، لأن ابتداء العبرة يكون به، ولا عبرة لمن لم يعتبر به أولاً، لكمال العبرة فيه، ولا شيء ينال المحاسبيَ في ذلك، فحقـًا لا نجد العبرة الكاملة التامة إلا في كتاب الله، وهذا لا ينفى العبرةَ عن غيره، ومَنْ لم يعتبر بالقران في الأصل والبدء بمعنى: أنْ يقبل القرانَ، ويُحَكِّمَه في

(١) – ميزان الاعتدال للذهبي ١/ ٤٣٠.

حياتِه كلِها، فلا عبرة له في غيره ولا ينفه غيرُه من الكتب مهما كان، حيث لم يهتدِ بالقران الكريم أولاً وأصلاً، ثم يأتي ما عداه من العِبرَ والعِظات تابعًا له متراخيًا عنه، فكأن أبا زرعة أراد: أن يشير الى هذا المعنى لا أن يجحد كتب المحاسبى.

على أن هذه الرواية تعطينا حكمًا صادراً في زمن المتقدمين الذين كانوا يتحرجون من المباح خوف الوقوع في الشبهات، وهو ما أشار إليه الذهبي في آخر كلامه، حيث نجد الذهبي يقف موقف القاضي العادل من القضية، معتمداً في الفهم على مراعاة البعد الزمنى المتقدم، والفرق بين الحكم الصادر من المتقدمين على بعضهم البعض -وبين الحكم على المتأخرين- باعتبار ما هم عليه من حال الالتزام والتقى والورع، والبعد عن كل ما من شأنه أنْ يُحْدِثَ انشغالاً عن الكتاب والسنة، في عصر كانت العناية كلُها متجهةً إليهما من كل الجهات، فنلاحظ هنا مراعاة البعد الزمنى والمقارنة بين المتقدمين والمتأخرين، وماذا كان يمكن أن يحدث من المتقدمين لو رأوا كتبَ المتأخرين؛ ليحكموا عليها؛ لذا قال: "وأين مثلُ الحارث! فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين: ثم يتدرج من القديم الى الحديث، وكلما انتقل من مرحلة الى المرحلة التي تليها، تحَسَّرَ وتأسف على ما قبلها بقوله: وأين مثل... :حتى إذا تأخر الزمان قال: لو رأى...؛ لطار لبُّهُ :وذهب حلمه من حال المتأخرين.

أو يكون المراد من كلامه هو: إنكار الاشتغال بغير السنة في وقت العناية بها، أو لأن يوجد بهذه الكتب بعضُ الأحاديث التي لم تبلغ درجة الصِحَّة ومثل أبي زرعة الرازي يَغار على السُنَّة؛ لاشتغاله وعنايته بها، ولمعرفته بالصحيح وغيره منها، فهو غيور ومنكر على كل من لم يعتنِ بذكر الصحيح، شديد اللهجة على من تساهل في إيراد الأحاديث دون معرفة درجتها والنص على تلك الدرجة من الصحة والضعف، لذا قال:(عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك) وينكر الاشتغال بالكلام في الخطرات، والوساوس وأحوال النفس، لأنها تشغل عما يجب العناية به وهو السنة النبوية، وهو ما أشار إليه الذهبي في فهمه حيث أشار الى ما في الإحياء من الأحاديث الضعيفة بقوله: "كيف لو رأى تصانيف أبي حامد الطوسي في ذلك على كثرة ما في الإحياء من الموضوعات :فوَجَّه الذهبي الكلامَ على التفريق بين الصحيح والموضوع، وأنَّ عدمَ التمييز بينهما، والانشغال بغير الأثر قد يكون سببًا في انتشار البدع والضلال، أي البعد عن الحق.(فالمناط هنا على العناية بالسنة، وإنكار لكل ما يشغل عنها).

والخلاصة: أنَّ الحكمَ ليس على إطلاقه، بل هو مقيدٌ بالفترة الزمنية المتقدمة فأبو زرعة توفى سنة (٢٦٤هـ) وهو زمن القرون الأولى التي شُهِدَ لها بالفضل والخيرية، فالفرقُ إنما هو فرقٌ بين الأجيال المتقدمة والمتأخرة. ومدى التأسف على ما صار إليه حال المتأخرين مقارنة بأحوال المتقدمين؛ ولذا ختم الذهبي كلامَه بقوله: "نسأل اللهَ العفوَ والمسامحةَ آمين".

أو أنّ مناط الكلام على التفريق بين الصحيح وغيره من السنة، وأن عدم التمييز بينهما، والانشغال بغير الأثر قد يكون سببًا في انتشار البدع والضلال والبعد عن الحق. (فالمناط هنا على العناية بالسنة والإنكار لكل ما يشغل عنها).

ثاني عشر: كرامات الحارث المحاسبى.

كان للحارث المحاسبى زهدٌ وعبادات ومجاهدات، أورثته مواجيد وكرامات،

ومن كراماته أن الله تعالى أكرمه بعلامة تعينه على التفريق بين الطعام الحلال وغيره، فإذا كان من كسب غير طيب، وجد في هذا الطعام رائحة زفرة فيمتنع عن ابتلاعه، فقد روى ذلك الجُنَيْدُ بقوله: "اجْتَازَ الحَارِثُ يَوْمًا بِي، فَرَأَيْتُ فِي وَجْهِهِ الضُّرَّ مِنَ الجُوْعِ، فَدَعَوْتُهُ، وَقدَّمْتُ لَهُ أَلْوَانًا، فَأَخَذَ لُقْمَةً، فَرَأَيْتُهُ يَلُوْكُهَا، فَوَثَبَ وَخَرَجَ، وَلفَظَ اللُّقْمَةَ، فَلَقِيْتُهُ، فَعَاتَبْتُهُ، فَقَالَ: أَمَّا الفَّاقَةُ فَكَانَتْ شَدِيْدَةً، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنِ الطَّعَامُ مَرْضِيًّا، ارْتَفَعَ إِلَى أَنْفِي مِنْهُ زَفْرَةٌ، فَلَمْ أَقْبَلْهُ"[1]

وفى رواية أخرى بلفظ: "قال يا بني أما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدت في أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضيا ارتفع إلى انفي منه زفرة فلم تقبله نفسي فقد رميت تلك اللقمة في دهليزكم وخرجت"[2]

ونجد في رواية القشيري زيادة تفصل وتمام بقوله: "يحكى عن الجنيد أنه قال: مرَّ بي يومًا الحارث المحاسبي، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت: يا عم، تدخل الدار وتتناول شيئًا؟ فقال: نعم، فدخلت الدار وطلبت شيئًا أقدِّمه إليه، فكان في البيت شيء من طعام حُمِل إليَّ من عُرْسِ قَومٍ، فقدَّمتُه

(١) - سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠ ترجمة رقم: (٣٥).

(٢) - تاريخ بغداد لابن عساكر ٩/ ١٠٦ ترجمة رقم:(٢٦٤٧)، حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/ ٧٥ رقم ٤٦٥، وصفة الصفوة لأبى الفرج ٢/ ٣٥٦

إليه، فأخذ لقمةً وأدارَها في فمه مرات، ثم إنّه قامَ وألقَاهَا في الدهليز، ومَرَّ، فلمَّا رأيته بعد ذلك بأيام، قلتُ له في ذلك، فقال: إني كنتُ جائعًا، وأردتُ أنْ أَسُرَّكَ بأكلي وأحفظ قلبَك، ولكن بيني وبين الله، سبحانه علامة: أنْ لا يُسَوِّغُني طعامًا فيه شُبْهَةٌ، فلم يمكنّي ابتلاعه، فمن أين كان لك ذلك الطعام؟ فقلت: إنه حُمل إليَّ من دار قريب لي من العُرْسِ، ثم قلتُ له: تدخلُ اليومَ؟ فقال: نعم. فقَدَمْتُ إليه كِسراً يابسَة كانتْ لنا، فأكلَ وقال: إذا قدمتَّ إلي فقيرٍ شيئًا فقدِّم إليه مثل هذا."[1].

ومن مواجيده: ما جاء في طبقات الشافعية أنه "قِيلَ: إنّ رُجُلاً أنشدَ بين يدىّ الحارث هذه الأبيات:

أنا في الغُربــة أبكـى *** ما بَكَــتْ عينُ غريـب

لم أكنْ يوم خروجـي * * * مـــن بلادي بمُصِيـب

عَجَبَــاً لى ولِتَرْكِـى * * * وطَنَــاً فيــه حَبِيـــبُ

فقَامَ يتَواجَدُ ويبكِى حتى رَحِمَهُ كلُّ مِنْ حَضَرَه"[2]. فتلك من مواجيد المحاسبى.

والخلاصة: أن من كرامات الحارث أن الله تعالى جعل له علامة يَعرِف بها الطعام الذي فيه شُبْهَةٌ، فلا تقبله نفسُه فيمتنع من أكله، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده -اللهم ارزقنا الحلال وبارك لنا فيه آمين ياكريم- وأنه قد كان له أيضًا مواجيد، ولا ينبغي إنكار ذلك فقد قيل: منْ ذَاقَ عَرَفْ، ومن عَرَفَ اغتَرف. والله تعالى أعلم بحال عباده ما ظهر منها وما بطن.

ثالث عشر: موقف المحاسبى من أهل البدع.

كان للحارث المحاسبي موقفٌ صارمٌ تجاه البدع والمبتدعين، فهو يقاومهم بشدة، ويقف لهم كالجبل الأشم الذي تتحطم عليه الشُبُهَات

فمن جهة المتكلمين نجده كتب في الرد على الأقوال التي رأى أنها مبتدعة تخالف إجماع

(١) - الرسالة القشيرية في علم التصوف للقشيري ص ٢٠،٢١ مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة، وفى بعض الروايات تنص على أنه أتى بالطعام من بيت عمه فيقول الجنيد "وعمدت إلى بيت عمي وكان أوسع من بيتنا: تهذيب الكمال للمزي ٥/ ٢٠٨.، وعند السبكي زيادة وصف بيت عمه بأنه: لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا: طبقات الشافعية ٢/ ٢٧٦.

(٢) - طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/ ٢٧٧.

المتكلمين من السلف وأهل السنة فقد ألف في الرد على المعتزلة والرافضة[١]، وجادلهم بنفس أساليبهم مما أغضب الإمامَ أحمد بن حنبل منه، ولم يتهاون المحاسبى معهم حتى لو كان هؤلاء من الصوفية، فيقاوم ما كان يصدر عن بعض الصوفية من تلاميذه أو من غيرهم فيما يعرف بالشَطْح، وتأمل ما روى عنه في ذلك من أنَّ بعضَ التلاميذ "دخل على الحارث المحاسبي، فصاحت شاه: ماع؛ فشهق [هذا المريد] وقال: لبيك لبيك يا سيدي، فغضب الحارث، وأخذ السكين، قال: إن لم تَثُبْ أذبحك".[٢] وهذا يدل على شدته في الحق ومقاومة أهل البدع.

رابع عشر: مؤلفات المحاسبى.

تعددت كتبُ الحارث المحاسبى وتشعبت علومُها وتعددت مساراتها، حتى قيل عنها إجمالاً: "له كتبٌ كثيرةٌ في الزهد، وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة، وكتبُه كثيرةُ الفوائد جمَّةُ المنافع، وقال جمعٌ من الصوفية: إنها تبلغ مائتي مصنف"[٣]

قال المزى : "وللحارث كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة، وغيرهما، وكتبُه كثيرةُ الفوائدِ جَمَّةُ المنافع، ذكر أبو علي بن شاذان يومًا كتابَ الحارث في الدماء فقال على هذا الكتاب عَوَّل أصحابُنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة".[٤]

وقال ابن النديم: وله من الكتب: كتاب التفكر، الاعتبار، قال الخطيب: له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة"[٥]

يروى الشعراني عن الحارث أنه كان له كتاب (المعرفة) يقول هو نفسه عنه: "عَمِلْتُ كِتَابًا في المعرفة، وأُعجِبتُ به، فبينما أنا ذاتَ يومٍ أنظرُ فيه مُستَحسِنًا له، إذ دخل على شابٌّ عليه ثياب رثَّةٌ، فسَلَّم عليّ، وقال: يا أبا عبدِ الله: المَعْرِفَةُ حَقٌ للحقِ[تعالى] على الخَلْقِ؟ أو حقٌ للخلقِ على

(١) – فقد روى أن له كتبًا في: أصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة: تهذيب الكمال للمزى ٥/ ٢٠٨.

(٢) – سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ١٦٧– ترجمة رقم(٩٩) وهى ترجمة لحمزة محمد بن إبراهيم الصوفي البغدادي قال عنه الذهبي: "له انحراف وشطح وتأويل :وروى أنه طُرِد؛ اشَطْحِه من طرسوس إلى بغداد وتوفى سنة ٢٦٩هـ..

(٣) – طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٦.

(٤) – تهذيب الكمال للمزي تحقيق د/ بشار عواد معروف– باب ذكر من اسمه الحارث ٥/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٥) – الفهرست ٥/ ٢٣٦.

الحَق[تعالى]؟!فقلتُ له: حقٌ على الخَلْقِ للحَق[تعالى]. فقال [الشابُّ] هو [تعالى] أوْلَى أنْ يكْشِفَها لمُسْتَحقِّيهَا، فقلتُ: بل حق للخلق على الحق[تعالى]. فقال[الشابُّ]: هو [تعالى] أعدلُ من أنْ يظلمهم. ثم سَلَّمَ علىَّ، وخَرَج. قال الحارثُ: فأخَذتُ الكتابَ وحَرَقتُه، وقلتُ لا عُدْتُ أنْ أتكلمَ في المعرفةِ بعد ذلك"[1].

كتاب المسائل في الزهد كتاب الحارث في الدماء كتاب التفكر، الاعتبار كتاب (المعرفة) رسالة في العقل.

ويُروى أنه كان يقيد الأجوبةَ التي يجيبُ بها على طلابه ومريديه كُتُبًا، فقد قال الجنيد: فإذا حَصَلْتُ معه في المكان الذي يجلسُ فيه [المحاسبى] قال: سَلْنِي...عمَّا يمتنع في نفسك، فتنثال علىَّ السؤالات، فأسأل عنها، فيجيبني عنها للوقت، ثم يمضى الى منزله، فيعملها كُتُبًا"[2]. وهذا دليل حرصه على التقييد والتأليف، وهو مما ينتج عنه كثرة الكتب.

وقد تناول د/ عبد الحليم محمود مؤلفات الحارث في مساحة كبيرة من كتابه عنه[3]، وقسمها لمراحل، ورتبها تاريخيًا، وهذا ملخص لأهم كتبه التي ذكرها الشيخ، وغيره ممن جاء بعده: فهو من أوائل المؤلفين عنه حديثًا، وعليه اعتمد من جاء بعده.

١- الرعاية بحقوق الله حققه د/ عبد الحليم محمود دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣م.

٢- رسالة المسترشدين -تحقيق عبد الفتاح أبو غدّة دار السلام بالقاهرة ١٩٦٤م.

٣- العقل وفهم القران حققه حسن القوتلي -دار الفكر بيروت لبنان ١٩٨٧م.

٤- رسالة في شرف العقل وماهيته -حققه مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٦م.

٥- كتاب المسائل في الزهد -حققه مصطفى عبد القادر عطا.

٦- كتاب بدء من أناب إلى الله تحقيق مجدي فتحي السيد.

٧- أدب النفوس تحقيق مجدي فتحي السيد. وهو مطبوع مع الكتاب السابق وطبعا بالقاهرة ١٩٩١م.

---

(١) - الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٤.

(٢) - تهذيب الكمال للمزي ٥/ ٢٠٨.

(٣) - أستاذ السائرين الحارث المحاسبى في الفصل الثاني من ص٦٧ الى ص ٩٦.

٨- كتاب المكاسب والورع والشبهات.

٩- كتاب النصائح، وشرح كتاب النصائح.

١٠- كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح، أو التنبيه على أعمال القلوب والجوارح.

١١- كتاب العظمة في الإلهيات - كما ذكره د/ عبد الحليم محمود.

١٢- كتاب التوهم، وفيه وصف للقيامة والحساب- كما ذكره د/ عبد الحليم محمود- وهو مطبوع.

١٣- الوصايا طبع بالقاهرة - كما ذكر د/ عبد الحليم محمود.

١٤- القصد والرجوع الى الله تحقيق عبد القادر عطا.

١٥- كتاب شرف العقل وماهيته طبع مع كتاب الغزالي تحقيق مصطفى عبد القادر عطا بيروت.

١٦- معاتبة النفوس تحقيق عبد القادر عطا.

١٧- كتاب الإرشاد.

١٨- أحكام التوبة.

١٩- الخصال العشرة كما جربها أهل المحبة.

٢٠- الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة.

٢١- شرح المعرفة وبذل النصيحة.

٢٢- كتاب فهم الصلاة.

٢٣- كتاب المراقبة والمحاسبة.

٢٤- كتاب أحكام التوبة.

٢٥- كتاب النصحة للطالبين.

٢٦- كتاب المسترشد.

٢٧- كتاب العلم.

٢٨- كتاب المعرفة.

٢٩- ومن المفقود كتاب الكف عما شجر بين الصحابة أو كتاب الدماء، كتاب التنبيه، وأخلاق الحكيم، وكتاب التفكر والاعتبار، والرضا، والغيبة، وفهم السنن....، وغيرها الكثير من المؤلفات، مما هو

مطبوع أو مخطوط أو مفقودٌ؛ فقد بلغت كتبُه مائتي كتاب كما ذكر بعض المؤرخين له قديمًا وحديثًا[١].

خامس عشر: وفاة الحارث المحاسبى

يوجد إجماع من المؤرخين على: أنه توفى سنة(٢٤٣هـ)، وفى ذلك يقول الذهبي: "ومات: سنةَ ثلاثٍ وَأَربَعِينَ ومائتَيْن"[٢]. وقال أيضًا: وفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين هجرية توفي الحارث بن أسد المحاسبى الزاهد العارف صاحب التصانيف"[٣]، وقال ابن قنفد عن وفاته بعدما تحدث عن وفيات سنة ٢٤٢هـ: "وفي التي تليها توفي: حِرملة بن يحيى التَجِيبي، والحارث بن أسد المحاسبي"[٤]، أي أنّه توفى في سنة: (٢٤٣هـ)، كذا ذكر وفاته ابن كثير.[٥]

أمَّا عن حَالَه وبِشَارتِه حين حَضرَتْهُ الوفاةُ، فقد رَوى الخطيبُ البغدادي حالَه حين وفاته بقوله: "قال الحارث [لجُلسَائه]: إنْ رأيتُ ما أحبُ تبسمتُ إليكم، وإن رأيتُ غيرَ ذلك تَبَيَّنْتُمْ من وجهى؛ [قال الراوي] فتبسمَ ثم مات"[٦]

<u>وتوجد رواية ضعيفة في عدد المصلين عليه بعد وفاته</u> "قال أبو القاسم النصراباذى: بلغني أنَّ الحارثَ تكلم في شيء من الكلام، فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى، فلما مات لم يُصَلِّ عليه إلا أربعةُ نَفَر"[٧]،وقد روى الذهبي روايةَ موته مُجَرَّدةً من ذكر عدد المُصَلِّين عليه، فقال: "وَقِيلَ: هَجرَهُ أَحمدُ،

---

(١) – راجع أستاذ السائرين الحارث المحاسبى من ص٦٧ الى ٩٦. وانظر مقدمات تحقيق الكتب المطبوعة التي أشرت إلى تحقيقها.

(٢) – سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٣ ترجمة رقم (٣٥). ونص على انه توفى في هذه السنة مع الإمام احمد بن حنبل سير النبلاء ١١/ ٣٦٨ رقم ٧٨.

(٣) – دول الإسلام لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي (ت ٧٤٦هـ) ص١٣١ – نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

(٤) – كتاب الوفيات لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفد القسنطيني(ت٨٠٩هـ) تحقيق عادل نويهض ص١٧٩ – نشر دار الإقامة الجديدة– بيروت لبنان ط(٤) سنة ١٤٠٣/ ١٩٨٣م. وانظر السلوك في طبقات العلماء والملوك لبهاء الدين الجندي الكندي ٢/ ٣٥٥.

(٥) – البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠صـ ٣٥٦، حيث ذكره في وفيات سنة ٢٤٣ه، قال: وفيها توفى الحارث المحاسبى.

(٦) – تاريخ بغداد ٩/ ١١٠. ترجمة رقم (٤٢٨٣) تحقيق بشار عواد.

(٧)– وردت هكذا في تاريخ بغداد ٩/ ١١٠.

فَاختَفَى مُدَّةً، وماتَ: سنةَ ثَلاثٍ وأَربعِينَ ومائَتَينِ.(١) فلا توجد هنا إشارةٌ الى عدد المصلين.

والخلاصة: أن الروايات التي تحدثت عن وفاته نجدها وردت على أربعة أنواع.

الأولى: وردت بعضها بالإشارة الى موته مطلقًا، دون إشارة إلى شيء آخر غير الثناء عليه.

والثانية: تشير الى هجر الإمام أحمد بن حنبل له، واعتزال المحاسبى فترةً، ثم موته بعدها.

والثالثة: تشير الى الهَجْر والعُزْلَة، ثم موته أيضًا، مع الإشارة إلى العدد القليل الذي صلى عليه، وكأَّن هذا العددَ القليلَ كان نِقْمَةً وغَضَبًا من الناس عليه؛ نتيجةً لما سبقه من الهَجر والعُزلة، دون الوقوف عند الرواية وتمحيصها، أو الحكم عليها.

الرابعة: كالثالثة تمامًا لكنها تزيد عليها بأنَّها مقترِنة بالحكم علي الرواية بالضعف والرَدّ لانقطاعها، وهو ما فعله الذهبي (ت ٧٤٦هـ)، فنجده هنا يحكم علي هذه الرواية بقوله: "وهذه حكايةٌ مُنقَطِعَةٌ"(٢)، فقد حكم عليها بأنها منقطعةٌ، وفي ذلك ردٌ مطلقٌ لهذه الرواية؛ وحيث حكم الذهبي على تلك الرواية بالانقطاع؛ فلا وزن لها، ولا عبرة بها؛ فهو محققٌ مدقق في الروايات، وقد حكم أيضًا بضعف إحدى الروايات التي وردت في موت الإمام أحمد بن حنبل(٣)، وقوله حجّةٌ.

وفي النهاية يمكنني القول: بأن العقل يحيل أن تكون هذه الرواية لها نصيب من الصحة، بل أقول: هي محضُ كذبٍ على الرجل؛ لأنه من المحال عقلاً أن يكون جملةُ من صلى على الحارث أربعةَ نَفَر فقط، مع ما كان عليه حالُ الحارثِ المحاسبى من التُّقى، والعلم، والوَرَع، والحَال،.....،.... هذا لا يمكن التسليم به أبداً، بل لا يُجَوِّزُ العقلُ ذلك القدر حتى في الصلاة على صاحب بِدْعَةٍ ظاهِرةٍ، فكيف برجل تَقِيٍ نَقِيٍ كالحارثِ المحاسبى؟!

وهنا أتسائل منكراً لهذا العدد القليل جداً قائلاً: إذا كان من صلى على الحارث أربعة نَفَرٍ!!

---

(١)- سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ١١٣).

(٢)- ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٠ -حرف الحاء- ترجمة رقم: (١٦٠٦). تحقيق محمد على البيجاوى- دار المعرفة بيروت لبنان.

(٣)- وهى الرواية التي تدَّعى أنه قد أسلم يوم جنازة الإمام أحمد بن حنبل نحو عشرة أو عشرين ألف يهودي ونصراني ومجوسي، فقد ردَّها الذهبي بقوله: "العقل والعادة يحيلُ مثل هذا". والكلام في نقدها طويل انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٣- ترجمة الإمام رقم:(٧٨).

فأين أتباعه الذين ذكرتهم الروايات الأخرى بأنهم كثيرون، وهم في مجلسه بين: ناحب، وزاعق، وصاعق، ومغشي عليه كما سبق ذكره في رواية سماع الإمام أحمد بن حنبل للحارث وأصحابه ليلةً كاملةً؟؟!! أيعقل أنْ يترك هؤلاء جميعًا الصلاةَ عليه مهما غضبَ العامةُ منه؟! هل يمكن أن يؤدى غضبُ الناس عليه -لو سلمنا وقوعه- الى أنَّ أصحابَه وأتباعَه يتركون الصلاةَ عليه !!؟؟ إنَّ هذه الرواية بهذا العدد تحمل دليلَ ضعفِها بل كذبها، ولذا أقول: هذه رواية مكذوبة على الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى.

وأتساءل أيضًا متعجبًا: كيف يمكن قبول هذه الرواية بهذا العدد القليل جداً؛ إذا كان تلميذُه الجنيدُ يُذْكَرُ من أمر المُصَلِّين عليه ما يهول السامعَ فقد قيل: إنَّه صلى عليه نحو ستين ألف مُصَلٍّ، فقد ورد في ترجمة الجنيد أنه"صحب جماعة من العُبَّاد واشتهر بصحبة خاله سرى، والحارث المحاسبي، وتوفي يوم السبت في شوال سنة ثمان وتسعين ومائتين.... وصلى عليه ولدُه، وحزروا [أي أحصوا] الجمعَ الذي صلى عليه، فكانوا نحو ستين ألفًا"[1] فكيف يُعقَلُ أنَّ شيخَه الحارثَ قد صلى عليه هذا العدد القليل أربعة نفر؟!!!

هناك سؤال أخر: هل كان لاختفاء الحارث دخل في موته كما قد يُفهم من ظاهر الروايات التي جاءت تذكر الموت بعد الاختفاء؟؟ وأُسارع بالنفي فليس هناك علاقة بين الاختفاء والموت، -أن صحَّ القول بالاختفاء- فلعل المراد بالاختفاء هنا هو: العُزْلَة عن شواغل الحياة وعدم الاختلاط بالناس إلا بقدر الضرورة، مما يُعِينُ على الانقطاع للعبادة والتفرغ لها، ولو سلمنا: بأنه اختفاء مطلق، فالنفي قائم أيضًا، ولا دخل للاختفاء في الموت، وذلك لأننا نجد الإمام أحمد بن حنبل نفسه قد اختفى طول خلافة الواثق[2] وقد توفى الإمام أحمد سنة ١٤١هـ وتوفى الحارث المحاسبى سنة

---

(١)- صفة الصفوة ٢/ ٤٢٤.

(٢) - والروايات تدل على ثبوت ذلك حيث قال أحد الرواة: :بينا نحن في أيام الواثق إذ جاء يعقوب ليلاً، برسالة الأمير إسحاق بن إبراهيم الى أبي عبد الله أحمد بن حنبل [وفيها:] يقول لك الأمير [إسحاق]: إن أمير المؤمنين[الواثق] قد ذكرك [يعنى مُهدِّداً مُتوعداً] فلا يجتمعن إليك أحدٌ، ولا تُسّاكِنّى بأرض ولا مدينة أنا فيها، فاذهب حيث شئت من أرض الله[تعالى]، فاختفى أبو عبد الله بقيَّة حياة الواثق وكانت تلك الفتنة :سير أعلام النبلاء =

١٤٣هـ وهذا يعنى أن الحارث المحاسبى اختفى نحو سنتين مما يرجح أن المراد بالاختفاء: ترك الاختلاط بالناس، والتقليل من شواغل الحياة، تفرغًا للعبادة والإنابة إلى الله تعالى لا سيما في آخر العُمُر قبيل الرحيل، وليس المراد العزلة المطلقة، وعليه فلا يكون لتلك العزلة دخل في وفاة المحاسبى -كما قد يتوهم البعض.

للذهبي ١١/ ٢٦٤، رقم (٨٧)، فلما تولى المتوكل رفع المحنة، وقد قال الإمام أحمد عنه: ما كان أرْأفَ علىَّ من المتوكل :سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٦٥ .فقد وفد الإمام على المأمون وناظر وتركه المأمون، وكان المعتصم أشدهم بطشًا به حتى جلده وكان الواثق أقرب الى الرفق به، وأمّا المتوكل فكان أرفقهم به فلم يطع فيه أحداً، وردَّ الوشايةَ به عنده، حتى قال: لو نُشِر [أي بعث] المعتصمُ ما أطعته فيه كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمته ضمن أحداث سنة ٢٤١هـ.

الفصل الثاني
آراء الحَارِث المُحَاسِبيّ الكَلَامِيَّة

وفيــه: تَمهيــد وثَـلاثَة مبـاحِـث:

التَمْهيدُ في: تَنَاوُلِ بعضِ العُلَمَاءِ المُحْدَثِين لآرَاءِ الحَارِث

المبحثُ الأولُ: آرَاؤه في: مَسَائلِ الإلَهِيَّات

المبحث الثاني: آرَاؤهُ في مَسَائلِ النُبوات والسَمْعِيات

المبحث الثالث: آرَاؤهُ في: مَسَائلَ عَامَّةٍ مُتَفَرِّقَة

نُخصِّصُ الحديثَ في هذا الفصلِ عن الآراءِ التي قالَ بها الحارثُ المحاسبيّ في مسائلِ أصولِ الدين وما يتعلقُ بها، كمَا رواهَا عنه المتكلمونَ، أو كما جاءتْ في بعضِ كُتبِهِ، وقدْ أخَذْتُ نفسِي بنفسِ المنهجِ السَابقِ الذي اتبعتُهُ في البَحْثَين السَابِقَين على هذا البحثِ اللذَينِ تَنَاوَلتُ فيهما حياةَ وآراءَ اثنين مِن أعلامِ المدرسَةِ الكَلَّابِيَّةِ أعنى: مُؤسِسَهَا ابنَ كُلَّابٍ، وصَاحِبَه القَلَانِسِيّ[1]، فلم أقمْ بعرض المسائل كقضايا فكرية أطيلُ فيها المُعَالَجَةَ وأسردُ الآراءَ والكلامَ، بل تناولتُها كمسائلَ جُزئيةٍ موجزةٍ، يعنيني فيها النصُ الدالُ على عنوانِ المسألةِ، مهما كانَ الكلامُ قليلاً أو النصُ قصيراً، فاكتفيتُ بما يدلُ على المُرادِ بأقَلِ عِبارةٍ مُمكنَةٍ، وحَرَصْتُ على الإيجَازِ قدرَ الطَاقَةِ.

وقد قمتُ بجَمْعِ أقوالِ الحارثِ المحاسبى من كتبِه، ومن كتبِ غيرِه مِمَّنْ رَوَى عنْه، لإعْطَاءِ صورةٍ كليةٍ عن مذهبِه وأقوالِه في المسائلِ الكلاميَّة، من خلالِ جَمْعِ أقوالِهِ المتفرِقَةِ، ثم ترتيبُها على النَسَقِ المَعهودِ في كُتبِ علمِ الكلام، ولَسْتُ أدَّعِي الحَصرَ ولا أَستَطيعُهُ، بل القَدْرُ الموجودُ بين يديكَ -نحو خَمسٍ وخَمْسينَ مَسألةٍ- هو ما تَيَسَرَ لي جمْعُهُ، وبانتهاءِ هذا البحثِ أصبحَ لدَى القَارِئِ صورةٌ

(١) - البحث الأول بعنوان: (القلانسي حَيَاتُهُ وآراؤه الكَلَامِيَّة) منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر العدد: (٣٢) ٢٠١٥/ ١٤٣٧هـ، والبحث الثاني: بعنوان: (ابنُ كُلَّاب حَياتُه وآراؤه الكَلَامِيَّة) منشور -بمجلة الفرائد وهي- حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر أيضًا العدد (٤١) ديسمبر ٢٠٢١م، وثالثها الذي بين يديك عن: الحارث المحاسبي بفضل الله تعالى.

كامِلةٌ لآراءِ الأعْلامِ الثلاثةِ الأُوَلِ المؤسِسِينَ للمدرسة الكُلَابِيَّة، يستطيعُ بالنَظَرِ فيها رَسمَ الصورةِ العَامةِ لمَذهَبِ هذه المدرسَةِ وأعْلامِها، وهذا مِمَّا يَسَهِّلُ علي الباحِثينَ دِرَاسَةَ مَدَى تَأَثُّرِهَا وتَأثِيرِهَا المُمْتَد فيمِنْ جاءَ بعدَها فهذِهِ الأبحَاثُ الثَلاثَةُ سَتَفْتَحُ آفَاقًا جَديدَةً لِدِراسَةِ (المَدرَسَةِ الكُلابيةِ) في أولِ عَهدِهَا دراسَةً مُتَفَرِّدَةً مُتخصِّصَةً للآرَاءِ والمذَاهِبِ بعونِ اللهِ تعالى، وليسَ كدراسةٍ تاريخيَّةٍ فقط، وإنِّى لأستَودِعُ تلكَ الأبحَاثَ عُمقَ التَاريخ الكلامِي. وباللهِ تعالى التوفيق.

وسيكونُ منهجي في عرضِ المسائلِ على النَحْوِ التالي:

١- رتبتُ المسائلَ على الترتيبِ المَعهودِ في عِلمِ الكَلامِ من: الإلَهِيَاتِ، النُبواتِ، والسَمعِياتِ، ثمَّ بعضَ المسائلِ العَامّةِ المتفَرِّقَةِ التي لا تدخلُ تحتَ تلك المباحثِ الكبرَى. على أنّ القَدْرَ الموجودَ فِعليًا لا يتَّسعُ ليشملَ كلَ هذِه المباحثِ، بل سيختَلِفُ بين الكَثْرَةِ والقِلَّةِ والنُدْرَة، حتى يصلَ الى حدِّ العدمِ في بعضِ المسائل.

٢- وضَعتُ عنوانًا لكلِ مسألةٍ يشيرُ إلى موضوعِها ورَأىَ الحارثِ المحاسبِيّ فيها، فعنوانُ كلِ مسألةٍ هو قولُه فيها غَالِبًا، وأمّا إذا كان الكلامُ طويلاً يتعذّرُ نظْمُهُ في عنوانِ المسألةِ، جعلتُ العنوانُ عامًا أو كسؤال، وستجِدُ رأيَ الحَارثِ المُحاسبيّ في ثنايَا الكلامِ.

٣- أخذْتُ نفسِي في: نِسبَةِ القَولِ للحارثِ المُحَاسِبِيّ بالتصريحِ بذِكرِ اسمِهِ واضِحًا صَريحًا في القَولِ المنسوبِ إليه، فإذا وجَدتُ عِبارةً عامَّةً منْسوبةً الى أصحَابِ ابنِ كُلَّابٍ أو الكُلَّابِيَّةِ تركتُها؛ لعدمِ التَصْرِيح بذكر اسمِ المحاسبِيِّ.

٤- مهدتُ للنصِّ بما يوضِّح مَوضُوعَه، ومَوضِعَه، وعقَّبتُ عليه عنَد الحاجةِ بإيجازٍ، وإلَّا فَلا.

٥- ذكرتُ النصَّ الذي يَدُلُّ على مذهبِ الحارثِ المحاسبى -سواءٌ أكانَ قولاً له، أو رِوَايةً عنه- منسوبًا لمصدرِهِ بكلِ دِقَّةٍ وأمانةٍ دونَ تَدَخُّلٍ، إلّا بتوضيحِ كلمةٍ أو تفسيرِ ضميرٍ، ونحوه، مُمَيِّزاً لذلك عن النصِّ الأصلي بوضعِهِ بين قوسَين مُربعين هكذا:[....]؛ تمييزاً له عن النَصِّ الأصلي، وحِفَاظًا على أمانَةِ نقلِ النُصوصِ.

وإليكَ ما يسَّرَ اللهُ تعالى لي العُثورَ عليه منْ آراءِ الحارثِ المحَاسِبى الكَلامِيةِ -بعونِ الله تعالى- مُمَهِداً لذلك بذكر أهم مَا ذكرهُ فضيلةُ الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم محمود فهو من أبرز الدارسين

الأُوَل للمحاسبي -رحمهما اللهُ تعالى.

أولاً: تمهيدٌ في: تَنَاوُلِ بعض العلماء المحْدَثين لآراءِ الحارثِ المحَاسِبِيّ.

يُعتبرُ د/ عبدُ الحليم محمود من أوائل العربِ الذين كتبوا عن الحارثِ المحاسبيِّ في كتابِه المسمى: (أستاذُ السائرين الحارثُ بنُ أسدٍ المُحَاسِبِيّ) وقد خَصَّصَ طَرَفًا يسيراً منه تحتَ عنوان: الباب الثاني: في العقيدة، تناولَ فيه عدداً قليلاً من آراءِ المحاسبِيّ الكلاميَّةِ، وإحْقَاقًا للحقِّ أوردُ أبرز وأهم تلكَ المسائلَ التي تتصل بالمسائل العقدية منسوبَةً الى موضِعِهَا من كتابِه مع وضعِ عنوانٍ لها. وستجِدُ تَفصيلَ بعضِها فيمَا سيأتي منَ المسَائلِ بعدَ ذلكَ بإذنِ الله تعالى.

١- إثبَاتُ وُجودِ اللهِ تعَالى.

يقولُ د/ عبد الحليم محمود: "كتَبَ المحاسبيُّ كثيراً في مسألةِ وجودِ اللهِ تعالى، ولكنَّ البراهينَ التي عرضَهَا في هذا الشأنِ لم تصلْنَا بكاملِ تفاصيلِها، وفى القرانِ الكريمِ نجدُ دليلين على وجودِ الله تعالى: الأولُ منهما يخاطبُ العقلَ، ويقومُ على أنَّ لكلِّ معلولٍ عِلّةً ضرورةً، وأنَّ الخلقَ لابُدَّ له من خَالقٍ(١)، والثاني: كأنّه يخاطبُ الضميرَ فيسألُ مثلاً: أفى اللهِ شكٌّ فاطر السماوات والأرض؟(٢) ثم عقَّبَ قائلاً: ونحن لا نعلمُ إنْ كانَ المحاسبيُّ قد أتَى بغيرِ ذلكَ من البراهينِ"(٣)، والظاهرُ أنَّ الإمامَ يتمِّمُ ما لم يتحدثْ الحارثُ المحاسبِيُّ عنه، فالحديثُ عن صفاتِ اللهِ تعالى فرعٌ عن وجودِهِ تعالى.

٢- إثباتُ الوَحدَانِيَّةِ للهِ تعالى.

عندما تحدثَ د/ عبدُ الحليم محمود عن إثباتِ وحدانيةِ اللهِ تعالى عندَ المحاسبى استهلَّها بأنَّ الحارثَ تحدثَ كثيراً عن تلك المسألةِ وأنَّ ما وصلنَا من تراثِه فيها كثيرٌ وأنّهَا كانتْ من أهمِّ شواغِلِهِ

---

(١) - ولعل من الآيات التي تشير إلى تلك الفكرة قوله تعالى في سورة الغاشية(١٧ :٢٠): "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ".

(٢) - وهو هنا يشير لقول الله تعالى في(سورة إبراهيم/ ١٠) "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ".

(٣) - الحارث المحاسبى د/ عبد الحليم محمود ص ١٠٧.

شأن كلِ المسلمين، وأنَّ الحارثَ المحاسبيَّ تحدثَ عنها "فى الكثيرِ من مؤلفاتِهِ وعلى الأخصِّ في الفصلِ المتبقي من كتابِ العظمَّةِ الذي يتناولَها بصفةٍ خاصةٍ، والصفحاتُ المحفوظةُ من كتابِ التنبيهِ الذي يخبرُنا فيها بأنَّه بحثَ الموضوعَ أيضـًا في كتابهِ فهم القران، وهناكَ برهانٌ يعتمدُ عليه المحاسبيُّ في أغلبِ ما كتبَ حولَ الوحدانيةِ هو: البرهانُ المبنيُّ على الانسِجَامِ الذي يسودُ العالمَ في سائرِ أرجائِهِ، إنَّ كلَ الموجوداتِ في هذا العالمِ إنَّما وجدتْ لغرضٍ محددٍ، وكلُ جزئةٍ منه إنّما هي أساسُ لأخرَى، فكلُ جزئيةٍ تخدمُ جزئيةً أخرَى وتخدمُها أيضـًا جزئيةٌ غيرُها؛ فالنباتُ مثلاً إذا كان الغرض منه وجودُ الحيوانِ، فهو نفسُه لا يمكنُ أن يكونِ له وجودٌ إلا بالترابِ ولا توجدُ له حياةٌ إلا بالماء، وبالتالي فالكلُ سلسلةٌ، وكلُ حلقةٍ من السلسلةِ لازمةٌ حتمـًا لتآلُفِ المجموعِ...، ثم يُبَينُ أنَّ هذا التآلفَ لابد من أنْ يكون له خالقٌ واحدٌ، إذ لو كان هناك خالقٌ ثانٍ لمَا وُجِدَ التآلفُ، فإذا اجتمع اثنان وجد الاختلاف بالضرورة بين إرادتيهما؛ حيث يطلبُ كلٌ منهما أنْ يكونَ له الملكُ كلُه، ولا يتأتى الكمالُ بغير ذلك، ومن لم يطلبْ ذلك منهما فهو إذن يقبلُ الوصفَ بالنقصَان، والناقصُ مُحتاجٌ، والمُحتاجُ مخلوقٌ.

ومن ناحيةٍ أخرى: فمَنْ أرادَ منهما الملكَ والكمالَ وأدركَهما ومَنَعَ الآخرَ منهما، فبالتالي ليس ممكنـًا أن يكون هذا الآخرُ هو الإلهُ، وهذا الآخرُ إذا أراد الملكَ والكمالَ ولم يدركْهما فهو عاجزٌ، ولو كان عاجزاً عمَّا يريدُ لنفسِه، فلابُدَّ أنْ يكونَ عاجزاً عمَّا يريدُه بالنسبة إلى الغير، وإذَنْ فنحن أمام أمرين لا يصحُّ إلّا واحدٌ منهما: إمَّا أن يكون كلاهما قادراً، وإمَّا أن يكونَ أحدُهما قادراً، وفرضُ إمكانِ أنْ يكونَ الاثنان قادرين مُحَالٌ، لأنَّ كلاً منهما سيطلبُ الكمالَ لنفسه، وتحقيقُ إحدى الإرادتين يستلزمُ فناءَ الإرادةِ الأخرى، وتحقيقُ الإرادتين معـًا مُحَالٌ؛ لأنّ كُلاً منهما تطلبُ الملكَ كلَّه. إذنْ فليس إلَّا إلهٌ واحدٌ.

والقولُ بالتوفيقِ بين الاثنين مُحالٌ فيما يتعلق بالإلَهِ؛ لأنَّ التوفيقَ لا يَتَأتَّى بغيرِ تنازلاتٍ مُتَبَادَلَةٍ، أي أنْ يتنازلَ كلُّ طرفٍ منهما عن شيء مَا، وهذا محالٌ بالنسبةِ للإلهِ، وهو من أمرِ المخلوقات"[1].

(١) – الحارث المحاسبى ص ١٠٨، ١٠٩.

ويقدمُ المحاسبيُّ دليلاً آخرَ على وحدانيةِ اللهِ تعالى من الكوارثِ التي حَلَّتْ بالشعوبِ الأولى وجاءَ ذكرُها في القرآنِ الكريمِ "وقد حلَّتْ تلك الكوارثُ بهذه الشعوبِ؛ لأنَّها لم تُصَدِق بما جاءَ به الأنبياءُ، وهم يَدْعُونَهم الى التوحيد".(١)

وهذا الدليل الذي أطلقَ عليه: دليلَ الكوارث، يعنى به: العذابَ والإهلاكَ الذي نزل بالمكذبين للرُسُلِ السابقين الذين دَعَوا أقوامَهم الى التوحيدِ، وهذهِ الأدلةُ التي ساقَهَا الحارثُ المحاسبيّ لإثباتِ وحدانيةِ اللهِ تعالى على سهولَتِها تدلُّ على اعتنائِهِ بتلكَ الصفةِ، واجتهادِه فيها، وهى تعطينَا أيضًا صورةً أوَّلِيَّةً لمَا عَمَّقَهُ بعد ذلك المتكلمون وفَتَّقُوه في الاستدلالِ على وحدانيةِ الله تعالى.

٣- تَنْزِيهُ اللهِ تعَالى عن المَكَانِيَّة.

كما اجتهدَ المحاسبيُّ في الاستدلالِ على وحدانيةِ اللهِ تعالى اجتهدَ كذلك في الاستدلالَ على بطلانِ نسبةِ المكانِ للهِ تعالى، ويَسْتَهِلُّهَا د/ عبدُ الحليم محمود بهذا التساؤل قائلاً: "هل اللهُ تعالى في مكانٍ؟ كانتْ هذه المسألةُ مثارَ جَدَلٍ...وفيما يتعلقُ برأي المحاسبيِّ فيها، فقدْ تفضَّلَ الأستاذ ماسنيوس باطلاعِنَا على نصٍّ لهذا الصوفي يحددُه، وفى القرآنِ الكريم آياتٌ كثيرةٌ فُسِرَتْ تفسيراتٍ مختلفةً، وفى النّصّ المذكور للمحاسبي نراه سيجمعُ الآياتِ التي تقولُ بأنَّ اللهَ تعالى في أعلى، أو في السماءِ، ويتخذُ هذه الآياتِ أَسَاسًا لمذهبِهِ، ثم يفسرُّ الآياتِ الأخرَى التي تقولُ مثلاً بأنّ اللهَ معنَا حيثُما كُنَّا تفسيراً يتمشَى مع هذا المذهبِ "وخلاصَةُ رأيهِ: أنَّ المحاسبى يرى أنّ اللهَ تعالى في السماءِ على عرشِهِ، وليس اللهُ تعالى حَالّاً في الأشياءِ أو المخلوقاتِ، وهو تعالى مالكُ الملكِ فوقَ العالمِ لا نظيرَ له في جلالِه ورفعتِه، وقولُه تعالى: إنه معنا، لا يعنى: كونَه معنا بذاتِهِ، وإنمَا هو معنا بعلمِهِ"(٢)، ولعلَّ الهدفَ الأصلي من ذكرِ ذلك هو نفيُ فكرةِ الحلولِ والاتحادِ عن الحارثِ كأحدِ أعلامِ الصوفية البارزين، ولذا نجد د/ عبد الحليم محمود يؤكِّدُ أنّ المحاسبيَّ كان بعيداً كلَ البعدِ عن القولِ بالحلولِ والاتحادِ، ويذكرُ تأويلَ المحاسبيّ للنصوصِ التي توهم ذلك: كتأويل المعيَّة،

(١) - الحارث المحاسبى ص ١٠٨، ١٠٩.

(٢) - الحارث المحاسبى ص ١١١، ١١٢.

وحديث: كنتُ سمعَه وبصرَة ويدَه ورجلَه، وحديث القربِ والتَقَرُّبَ، والإتيان والهرولةِ...ثم يعقِّبُ بقولِهِ: "إنَّ المحاسبيَّ لا يؤمنُ بحلولِ اللهِ تعالى في الإنسانِ، وهذا الرأي بالنسبةِ إليه ليس بالرأي العَارضِ، وإنّما يُكررُهُ في مواضِعَ أخرَى"(١) متعددَةٍ، وعليه فالحارثُ يرى: جوازَ التأويلِ لبعضِ النصوصِ الموهمةِ؛ فهو يُئَوِّل: المعيةَ، والإتيانَ، والقربَ، وكونَه تعالى سمعَ العبدِ، وبصرَه، ويدَه، ورجلَه. وسيأتي تفصيلُ ذلك بنصوصِهِ في مسائلِ الإلهيات-إن شاء الله تعالى

المبحثُ الأولُ: آرَاؤُه في مَسَائِـل الإلَـهِيَّـات.

١- مَعْرِفَةُ وجود الله تَعَالى فِطْرِيَّةٌ.

يرى الحارثُ أنّ مَعرِفةَ وُجُودِ اللهِ تعالى مُستَقِرَّةٌ في الفِطْرَةِ السليمَةِ؛ بما أُخِّذَ على ذرِّية بنى آدمَ من المِيْثَاقِ الأوَّلِ، الذي أقرَّتْ به النفوسُ في عَالَمِ الذَرِّ، وإنّمَا يَحتَاجُ المُكلَّفُ إلى استِعمَالِ عقلِهِ للتفكيرِ في آياتِ اللهِ تعالى، وأدلتِه البيِّنَةِ الدالةِ علي وجودِ اللهِ تعالى، وفى ذلك نجدُ الحارثَ يقولُ في حقِ سيدنا آدم عليه السلام: "فاسْتَخَصَّ اللهُ تعالى آدمَ وذريتَهُ، فأخَذَ منهم المِيثَاقَ، بما فَطَرَهمْ عليهِ من العُقولِ الرَضِيَّةِ والألبَابِ، والفَهمِ؛ ليدَّبَّروا بهَا شَواهِدَ التَدْبيرِ، وإحْكَامَ التَقْديرِ، فألزَمَهُم بذلكَ حُجَّةً مِن عقولِهم بمَا شاهَدوا من: إنشَائِهِ، وإتقانِ صُنْعِهِ في أنفسِهم، وفى جَمِيعِ خَلقِهِ"(٢) تعالى، فالحَارثُ المحاسبيّ يجعلُ معرفةُ اللهِ تعالى فِطرِيَّةً، فالإنسان مفطورٌ على معرفةِ خَالقِهِ تعالى لكنَّهُ يحتاجُ الى الفِكْرِ العقلي ليَستدِلَّ ويصلَ إليهَا ظَاهِراً؛ لذا يُصرحُ هنا بذِكرِ العُقولِ والألبَابِ وبشواهِدِ الخَلقِ والتَدبيرِ حتى قال: "فألزَمَهُم بذلك حُجَّةً مِن عُقُولِهِم".

٢- العَقْلُ وسِيلةٌ لمَعرِفَةِ الله تعالى.

يرى الحارثُ المحاسبيّ أنّ معرفةَ اللهِ تعالى عقليَّةٌ، ولا تجبُ بطريقِ الشرعِ، يؤخَذُ ذلك من قولِه:

---

(١) - انظر الحارث المحاسبى ص ١١٢، ١١٣.

(٢) - فهم القران للحارث المحاسبى، ومعه كتاب ماهية العقل كلاهما المحاسبى (ت ١٤٣ه) تحقيق د/ حسين القوتلى ص٢٦٤- نشر دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان ط(١) ١٣٩١/ ١٩٧١، وطبعة أخرى لفهم القران بتحقيق د/ خالد رمضان أحمد ص ٦٤-من مطبوعات قسم الدراسات القرآنية-كلية التربية-جامعة الملك سعود بالسعودية ط (١) ١٤٣٦/ ٢٠١٥م بدون ناشر.

"أعلمْ أنَّهُ ما تَزَينَ أحَدٌ بزِينةٍ كالعَقلِ، ولا لبِسَ ثوبًا أجملَ من العِلمِ؛ لأنَّهُ مَا عُرِفَ اللهُ تعالى إلَّا بالعقلِ، ولا أُطيعَ إلَّا بالعِلمِ"(١)، فالمحاسبي يجعلُ العقلَ طريقًا لمعرفةِ اللهِ تعالى، بلْ نجدُه في تعليلِه لرِفْعَةِ مَنزِلةِ العقلِ يقْصرُ معرفتَهُ تعالى على العقلِ بأسلوبِ القصرِ المدلولِ عليه بمَا النافية، وإلّا الاستثنائيَّة، وقد تابَعَهُ على هذا الرأي عُلمَاءُ الأشاعرةِ، ولكِنَّهم احْتَرَسوا وحقَّقوا التعبيرَ عن تلك الفكرةِ؛ ليدفَعوا اعتراضَ المعتزلَةِ عليهم: بلزومِ الدَوْرِ، وإفحَامِ الرُسُلِ -عليهم السلام- فقالوا: معرفةُ اللهِ تعالى تَجِبُ بالشَرْعِ، وتَحْصُلُ بالعَقْلِ، فالعَقلُ وسِيلَتُهَا، والشرعُ هو الذي أوجَبَها؛ لأنَّ نصوصَ الشَرعَ حثَّتْ الإنسانَ على إعْمَالِ عقلِهِ، والتَفَكُّرِ في النفسِ والآفَاقِ؛ ليدركَ العبدُ وجودَ اللهِ، وعظمته، ويعرف صفَاتِهِ جَلَّ وعَلَا.

٣- **ذاتُهُ تعالى ليستْ مَحَلاً للحَوَادِث.**

يرى الحارثُ المحاسبِيُّ: أنّ ذاتَ اللهِ تعالى المُقَدَّسَةِ ليستْ مَحَلاً للحوادثِ، وأنّه تعالى يستحيلُ يقومَ به شيء من الحوادِثِ؛ فصفاتُه تعالى قديمةٌ، ومِنْ ذلك إرادتُهُ تعالى فهي قَدِيمَةٌ، ومُحَالٌ أنْ تَحْدُثَ في ذاتِهِ تعالى إرادةٌ حادِثَةٌ، لم تكنْ قَبلُ،والحَارثُ يشيرُ إلى ذلك في أكثرِ من موضعٍ، فنجدُه عندَما تحدثَ عن القرانِ الكريم، وأنّه من عندِ الله تعالى، وبيَّن منزلتَه، وأثنَى على أهلِه القائمينَ بِهِ، يُعَلِّلُ ذلك كلَه بقولِه: "لأنَّه كلامُ القَديمِ الأولِ العظيمِ الأجَلِّ الكريم الأعلى "جَلَّ وعَلَ"، وقال مُعلِّلاً

(١) - رسالة المسترشدين ص ٩٧، ٩٨. وقد علَّقَ الشيخُ أبو غُدَّةَ على كلامِ الحارثِ السابق بقولِه: "وهذا من المؤلفِ أبي عبدِ اللهِ المحاسبيِّ يفيدُ أنَّ العقلَ أفضلُ من العلمِ، وهو الحَقُ"(حاشية المحقق رقم: (١) ص ٩٩.)، ولعل الشيخ اختار ذلك لأنَّ العقلَ سببٌ لمعرفَةِ اللهِ تعالى، والعلمُ سببٌ للهدايةِ لطاعتِهِ جلَّ وعَلا، فالقَولُ بتقديمِ العقلِ مقبولٌ؛ إذْ المَعرِفةُ المأخوذَةُ من العقلِ هي الأصلُ الذي يبنى عليهَا الفرعُ وهو الطَاعَةُ الناتِجةُ عن العلمِ، هذا فضلاً على أنّ للمحاسبي كتابًا مستقلاً في بيانِ منزلة العقل سماه: (شرف العقلِ وماهيته) حققه وطبعه مع كتاب الإمام الغزالي في العقل أيضًا الأستاذ/ مصطفى عبد القادر عطا -نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٦م. كذا حققه د/ القوتلى مع كتاب فهم القران وطبعهما معًا لكن باسم:(مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه)، ولعل الأصح: ماهية العقل بدل مائية، والنص المحقق تحت الاسمين واحد. والأمرُ في التفضيلِ بين العقل والعلم لا قطع فيه، ولا طائلَ تحتَه، فهُمَا متلازمان، ولا يُكتَفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ فلا عِلْمَ دونَ عقلٍ، وعقلُ الجَاهلِ قد يُرْدِيهُ ويُشْقِيه.

أيضـًا: لأنَّ قائلَه [تعالى] دَائمٌ لا يفنَى، ولا يتَغَيَّر، ولا ينقُصُ، ولا يَحدُثُ به الحَوَادِثُ"[١] ونجدُ المحاسبيَّ يؤكدُ هذا عندَما تحدثَ عن الرَدِّ على مَنْ أجازَ القولَ بنسْخِ الأخبَارِ، وبيانِ ما يَلْزَمُ منَ المُحَالَات على تقديرِ جوازِه في الأخبَارِ بقولِه: "ومِنْ ذَلِك [أي من المُحَالَات]: حُدُوثُ الإراداتِ في ذاتِهِ تعالى"[٢] وكذا ينصُّ عليهِ عندَ الردِّ على المعتزلةِ في القولِ بإرادةٍ حادِثةٍ بقوله: :فإنَّه لم يزَل يُرِيدُ – قَبْلَ أن يُحدِثَ الشيء– أنْ يُحْدِثَهُ في وقتِ إحْدَاثِهِ، فلم يزلْ يريدُ إحداثَه في الوقتِ المؤخَّرِ، فإذا جَاءَ الوقتُ، فهو أيضـًا يريدُ أنْ يحدِثَه فيه. فبإرادَتِه أحْدَثَه في ذلك الوقتِ الذي فيه أَحْدَثَه، فإرادَةُ اللهِ تعالى دَائمَةٌ؛ لأنّهُ مريدٌ قبلَ الوقتِ الذي يُحدِثُ فيه المَخلوقَاتِ، وفي الوقتِ الذي أحدَثَه فيهِ فأرادَ بقولِه "إذا أردناه": إذا جاءَ الوقتُ الذي [وجد] فيهِ، وهو له قبلَ [ذلك] الوقتِ مُرِيدٌ"[٣]، ثم يُوَجِّهُ المُرادَ بقوله تعالى: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً"(الإسراء/ ١٦): فإنَّمَا أرادَ بقولِه: إذَا أردْنَا: إذَا كانَ [أي إذَا جاءَ] الوَقتُ الذي أرَدْنَا أنْ نُـهلِكَهُم فيهِ، لا على البَدْءِ منْه بإرادَةٍ أُخرَى"[٤]، فالحارثُ يؤكدُ على تَنزيهِ اللهِ تعالى عنْ كونِهِ مَحَلاً للحَوادِث، ويُشيرُ إلى استحَالَة حدوثِ إرادةٍ في ذاتِه تعالى كأحَدِ فروعِ تنزيهِهِ تعالى عن حدوثِ الحَوادِثِ[٥] في ذاته تعالى.

---

(١) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٣٤. وهنا نجد د/ خالد رمضان أحمد ينقد المحاسبى، كعادته فهو يهاجم الكلابية وكل من خالف منهج ابن تيمية في الصفات، انظر فهم القران بتحقيقه ص ٩٩، وفى المقدمة ص٤٤ ط (١) ١٤٣٦/ ٢٠١٥م بدون.

(٣) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٤٣، وبتحقيق د/ خالد ص١٢٢.

(٤) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٤٤. وبتحقيق د/ خالد ص ١٢٣.وتجده يحل الى تعقبه للحارث في عدة مواضع: كقدم العلم واستحالة حلول الحوادث بذاته تعالى، والتعبير بالقدم بدل الأول، وتأويل الصفات الخبرية، ص ٦٣، ٤٤، ١٢٢.

(٥) – هنا نجدُ د/ خالدَ رمضان أحمد يجتهد في تَعَقُّبِ الحارثِ ومَنْ تَبِعَهُ فيقولُ: ومَردُّ كلامِه [يعنى الحارث] في هذا البابِ هو: إنكارُهُ للصفاتِ الاختيَارِيَّةِ؛ لاعتقادِه بنفي الحوادثِ عن الخَالقِ جلَّ وتقدَّسَ، ومصطلحُ:(حدوثُ =

٤- نَفْيُ قِيَامِ الأفعَالِ الاختِيارِيَّةِ بذاتِهِ تَعَالى.

تَرَتَبَ على نفيِ قِيامِ الحوادثِ بذاتِه تعالى: نَفْيُ قِيامِ الأفعالِ الاختياريّةِ بذاتِهِ تعالى أيضًا بطريقِ اللُزومِ، فعندما تعَرَّضَ ابنُ تيمية لبحثِ مسألةِ: كلامِ اللهِ تعالى، وبيانِ الخلافِ في معنى قولِهم: (القرآنُ غيرُ مخلوقٍ) هل المرادُ به: أنّه صِفَةٌ لازِمَةٌ له تعالى كالعِلمِ والقدرةِ، أو أنّه [صفةٌ اختياريّةٌ فهو تعالى] يتكلمُ إذا شاءَ، ويسكتُ إذا شاءَ؟ وذكرَ أنَّ هذه المسألةَ تتعلقُ بمسألة: قيامِ الأفعالِ المُتَعلِّقَةِ بمَشيئَتِه تعالى بذاتِه: هل يجوزُ تَعَلُّقُهَا بذاتِهِ تعالى أم لا؟

وفي بيانِ مذهبِ المحاسبيِّ في هذا يقولُ ابنُ تيميةَ: "وكذلك...تنازعوا في معنى قولِهم: القرآنُ غيرُ مخلوقٍ، هل المرادُ به: أنّه تعالى صفةٌ لازمةٌ له كالعلمِ والقدرةِ، أو أنّه تعالى: يتكلمُ إذا شاءَ، ويسكتُ إذا شاءَ؟ وهذه المسألةُ متعلقةٌ بمسألةِ: قيامِ الأفعالِ المتعلقةِ بمشيئتِهِ بذاتِهِ تعالى، هل يجوزُ أم لا؟ كالإتيانِ، والمجيءِ، والاستواءِ، ونحوِ ذلك، وتُسَمَّى: مسألةُ حلولِ الحوادثِ، وكلُ طائفةٍ من طوائفِ الأمةِ، وغيرُهم فيها على: قولين حتى الفلاسفةُ لهم فيها قولان:لمتقدميهم، ومتأخريهم..، وأولُ من صرَحَ بنفيها: الجهميَّةُ من المعتزلة ونحوُهم، ووَافَقَهُم على ذلك: أبومحمدٍ بن كُلَّاب، وأتباعُه: كالحارثِ المحاسبيِّ، وأبي العباسِ القَلانِسِيّ، وأبي الحسَنِ الأشعريّ، ومَنْ وافَقَهُمْ مِنْ

الحوادثِ) بالرَبِّ تعالى من المصطلحاتِ التي يَكثُرُ ذكرُها عند المتكلمين قديمًا وحديثًا مع أنَّ الحدوثَ لفظٌ مجملٌ يحتملُ معنى صحيحًا، وآخرَ باطلاً: فالمعنى الصحيحُ هو: نفيُ أنْ يكونَ الخالقُ جلّ وتعالى، أو صفاتُه العَليَّةُ قد حدَثَتْ وأُوجِدَتْ مثل سائرِ المحدَثاتِ المخْلوقَةِ [بعدَ عدَمٍ]، بل إنَّهُ جَلّ وتقدَّسَ أولٌ بِلَا ابتداءٍ، وآخرٌ بلا انتهَاءٍ، وقد سمَى نفسَهُ تعالى فقالَ: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحديد/ ٣)، والمعنى الباطلُ لحدوثِ الحوادثِ هو: المتعلقُ بأفعالِ الرَّبِّ تعالى وهو: نفيُ الصفاتِ التي تقومُ على الإرادةِ والاختيارِ؛ فينفونَ عن الربِّ جلّ وتقدّس أنْ يتكلمَ بما شاءَ متى شاءَ، وهكذا النزولُ، والاستواءُ، والإتيانُ، والضحكُ، والرضا، والغضبُ، والسمعُ، والبصرُ، وغيرُها من صفاتِ الحقِ سبحانهُ التي تثبت بالكتابِ والسنةِ، وحجَّتُهم: أنَّ كلَ مُتغيِّرٍ حادِثٌ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الحوادثِ". انظر مقدمة تحقيق كتاب فهم القران للمحاسبي ص ٤٤ تحت عنوان :(المآخذ على الكتاب)، وهو هنا ينقل عن ابن تيمية من الصفدية١/ ٢٦٥، والرسالة الأكملية س٤٥. والتحامُلُ واضِحٌ على كلِ منْ خَالَفَ توَجُّهِ ابنِ تيمية في مسألةِ الصفات.

أَتْبَاعِ الأَئِمَّةِ: كالقاضي أبي يعلى..، وهو قولُ طائفةٍ من متأخرِي أهلِ الحَديثِ"[١].

وهنا نجدُ الإمامَ ابنَ تيميةَ يشيرُ الى عمقِ الخلافِ في تلك المسألةِ، ثم يُقدِّمُ لنَا لمْحَةً تاريخيةً للقولِ بنفي قيامِ الحوادثِ بذاتِه تعالى ومتى نشَأَ، ثم يشيرُ الى أنَّ الحارثَ المحاسبيَّ -ومن وافَقَهُ وتَأَثَّرَ به- يرَى: نفيَ قيامِ تلك الأفعَالِ الاختِياريّةِ -المُتعلِّقةِ بمشيئتِهِ تعالى- بذاتِهِ، وهذا يعنى: أنَّهَا مُتوقِفَةٌ على المشيئةِ، بمعنى: أنَّه تعالى إذا شاءَ فعلَ، وإذا شاءَ تركَ، فهي ليست من قبيلِ الصفاتِ القائمةِ بذاتِهِ تعالى اللازمةِ لهَا -كالعلمِ مثلاً- لأنّ فيها شائبةَ مُشَابَهَتِهِ تعالى للحوادثِ، ولا يجوزُ قيامُ الحوادثِ بذاتِهِ تعالى.

٥- لا يُضَافُ الى اللهِ تعالى غيرُ مَا أضَافَهُ لنَفسِهِ.

ينصُّ المحاسبيُّ على أنّهُ لا يضافُ الى اللهِ تعالى غيرُ ما أضافَهُ لنفسِهِ، وهذا يعنى: أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى عندَه تَوْقِيفِيَّةٌ، ويعنى: أنَّ الشَرَ لا يضافُ الى اللهِ تعالى، بل يُضافُ الى الإنسانِ، ويعنى: أنَّ النَفعَ والضُرَ بقضَاءِ اللهِ تعالى وتقْدِيرِهِ، ولا دَخْلَ للعبد في شيء من ذلك مطلقًا. ويؤكدُ هذه المعاني كلَهَا ما رواهُ السُلَمِيّ عنه في تفسيرِ قولِه تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"(محمد/١٩) بقوله: "قال حارثُ المحاسبيُّ: أولُ علمِ التوحيدِ قولُه تعالى :(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، والثاني: أنْ لَا يُضيفَ إليهِ إلا ما أضَافَ إلى نفسِهِ، والثالثُ: عِلْمُ أمرِهِ ونهيِهِ ووعْدِهِ ووَعيدِهِ، والرابعُ: عِلمُ ما عُرِفَ من علمِ التوحيدِ، فلم يخَالفْ علمُه معرفتَه، وقالَ الحارثُ في قولِه: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ :لتَعْلَمَ أنَّه ليس إليكَ من ضُرِّكَ ونَفْعِكَ شيء"[٢]. فهذا مذهبُ المحاسبى كما يرويهِ السلميُّ عنه.

٦- إثبَاتُ بعضِ الصفَاتِ إجْمَالاً.

نجدُ الحارثَ المحاسبيّ في سياقِ حديثِهِ عن استِحَالةِ وقوعِ النسخِ في أخبارِ اللهِ تعالى يشيرُ إلى ثبوتِ بعضِ الصفاتِ جُملَةً، ويأتي بتلك الصفاتِ ليثبتَها بصورةٍ عكسيَّةٍ، بمعنى أنّه لا يَصِحُّ نسخُها بعد ثبوتِها فيقولُ: ولا جائزٌ أنْ يُخبرَ اللهُ تعالى بأمرٍ قد كَانَ، ثم يخبرُ أنّهُ لمْ يَكُنْ....، وكذلك لا يجوزُ

(١)- شرح العقيدة الأصفهانية ص ٦٨.

(٢)- تفسير السلمى ٢/ ٢٤٨.

إذَا أخبرَ أنّ صفَاتِه حَسَنةً عُليَا أنْ يخبرَ بعدُ أنَّها دَنِيَّةٌ سفلَى، أو يصفُ نفسَه بأنَّه جاهلٌ ببعضِ الغيبِ، بعدمَا أخبرَ أنّه عالمُ الغيبِ، وأنَّه لا يُبصِرُ ما قد كانَ، ولا يسمعُ الأصواتَ، وأنّهُ لا قُوَّة ولا قُدرَةَ له على الأشيَاءِ، و[لا أنْ يخبرَ أنه]لمْ يتكَلَّمْ بشيء ولا الكَلامُ كانَ منه، ولا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ، وأنّه تحتَ الأرضِ لا على العَرْشِ، جلَّ عن ذلك وتعَالى عُلواً كَبيراً"[1]

ففي هذا النصِّ يثبتُ الحارثُ كلَ هذه الصفاتِ للهِ تعالى، وتتنوعُ تلك الصفاتُ بينَ وجُودِيَّةٍ أو مَعْنَوِيَّةٍ: كالعلمِ، والبصَرِ، والسَمعِ، والقُدرةِ أو القُوَّةِ، والكَلامِ، وبعضُهَا فِعْلِيَّةٌ: كالخَلْقِ، وبعضُها خَبَرِيَّةٌ: كالاستواءِ، وهذا دليلٌ على استِقرارِ ثبوتِها في مَكنونِ النفسِ حتى أصبحَتْ كأنَّهَا من المُسَلَمَاتِ التي لا تحتاجَ إلى استدلالٍ، فهو يُقَرِّرُهَا على أنَّهَا بمَنزِلَةِ البَدِيهياتِ؛ لأنَّها قد ثَبَتَتْ بالخَبرِ الصادقِ، فلا يجوزُ تصوُّرُ نَسخِهَا أبَداً ولو عَقْلاً.

٧- جواز إثبات صفات المعاني بالعقل.

يسوق لنا شيخ الإسلام ابن تيمية نصاً مهماً عندما تحدث عن طريقَةَ شمسِ الدين الأصفهاني(٦٨٨هـ) -مصنف العقيدةِ الأصفهانيَّة التي شَرَحَها ابنُ تيمية- ومنهجِه في الاستدلالِ على إثباتِ صفات المعاني خاصة؛ لأنه سيستبعد الخبرية من هذا الإثبات بقوله: "لكنَّ المصنفَ سلكَ في ذلك طريقةَ أبي عبدِ الله الرازي، فأثبتَ: العلمَ، والقدرةَ، والإرادةَ، والحياةَ بالعقل، وأثبتَ: السمعَ، والبصرَ، والكلامَ بالسمع، ولم يُثبِتْ شيئًا من الصفاتِ الخَبَرِيَّةِ، وأمّا مَنْ كان قبلَ هؤلاء: كأبي المعالي الجويني، وأمثاله، والقاضي أبي يعلى، وأمثاله، فيثبتون جميعَ هذهِ الصفاتِ بالعقلِ، كمَا كان يسلكُهُ القاضي أبو بكر، ومَنْ قبلَه: كأبي الحسن الأشعري، وأبي العباس القلانسي، ومَنْ قبلَهم: كأبي محمد بن كلاب، والحارث المحاسبي، وغيرهما.

وهكذا السلفُ، والأئمةُ كالإمام أحمد بن حنبل، وأمثاله يثبتون هذه الصفاتِ بالعقلِ كما ثبتَتْ بالسمعِ وهذه الطريقةُ أعلى وأشرَفُ من طريقةِ هؤلاءِ المُتأخِرين"[2]، فأعلامُ المدرسةِ الكُلابِيَّة

(١) - فهم القران للمحاسبي تحقيق د/ القوتلى ص ٣٣٥، ٣٣٦، وبتحقيق د/ خالد رمضان ص ١١٨.

(٢) - شرح العقيدة الأصفهانية لأبى العباس ابن تيمية تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٨،٩ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ط ١٩٦٦.

الثلاثة، ومنهم المحاسبي، يستدلون على إثباتِ صفاتِ المعاني بالدليلِ العقلي.

٨- **إثباتُ علمِ اللهِ تعالى وعُمُومِه.**

بعد أنْ أثبتَ الحارثُ المحاسبيُّ أصلَ العِلْمِ لله تعالى، نجدُه يؤكدُ على أنّ علمَ الله تعالى محيطٌ شاملٌ لكل شيء من الكلياتِ والجزئياتِ، ولعلَّ ذلك منه كانَ كنوعٍ من المقاومةِ والرّدِّ على الاتجاهِ العقلي المسيطرِ في تلك الفترةِ، فنجدُه يقولُ في وصفِ اللهِ تعالى: "الأَوَّلُ القديمُ الدايمُ الكريمُ، فَاتَ المقدارَ، وعَلَا عن تَوَهُّمِ الأذهان، تَاهَتْ الألبابُ عن تَكْيِيفِه، وتَحَيَّرَتْ العقولُ عن إدراكِه، تفرَّدَ بعلمِ الغُيوبِ، فعَلِمَ ما كان، وما يكونُ، ومالا يكونُ، ولو كانَ كيفَ كانَ يكونُ"[١]، ثم يؤكدُ ذلك بقوله: وقد امتدحَ اللهُ -جَلَّ وعزَّ- بعلمِ ما قدْ كانَ، وما سيكونُ، وما لا يكونُ، لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ، فمَدَحَ نفسَهُ بعلمِ جميعِ الغيوبِ، فقالَ جَلّ وعَلَا: "وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ:(الإسراء/ ٥٥) وقالَ: وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ"(الأنعام/ ٣)، وقال: "عَالِمُ الغَيْبِ الشَهَادَةِ"(الأنعام/ ٧٣) وقال: "عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ"(البقرة/ ٢٣٥)...، وأخبرَ تعالى بمَا لا يكونُ، ولو كانَ كيفَ كانَ يكونُ فقالُ: بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"(الأنعام/ ٢٨)، وقال: "لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ"(الحشر/ ١٢) فأَخبرَ أنّهُ تعالى قَدْ علِمَ أنّهم لو نَصَروهُم لَوَلَّوا الأدْبَارَ.

وإنَّمَا [تفسيرُ] قولِه تعَالى: حَتى نَعلَمَ"[٢] و"ولمّا يَعلَم"[٣] و: وليَعلَمَنَّ"[٤] إنَّمَا يريدُ: حتى يراهُ فيكونُ معلومًا موجوداً؛ لأنّهُ لا جائز أنْ يكونَ يعلمُ الشيءَ مَعْدومًا قبلَ أنْ يكونَ، ويعلمُهُ موجوداً كائنًا، فيعلمُ في وقتٍ واحِدٍ أنَّهُ معدومٌ موجودٌ، وأنّهُ قد كانَ، وأنّه لمْ يكنْ بعدُ، وهذا مُحَالٌ"[٥]، فالمحاسبي هنا يشيرُ

(١) - فهم القران للحارث بتحقيق القوتلي ص ٢٦٣.

(٢) - يشير لقوله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ :(محمد/ ٣١).

(٣) - يشير لقوله تعالى: وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ :(آل عمران/ ١٤٢).

(٤) - يشير لقوله تعالى: وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ :(العنكبوت/ ١١).

(٥) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٣٨، ٣٣٩.

الى تنزيهِ اللهِ تعالى المطلق، والى إثباتِ علمِ اللهِ تعالى، وشمولِ علمِه تعالى لكلِّ ما هو كائنٌ، ولِـمَا لمْ يكُنْ، ولو وجِدَ كيفَ يكونُ حالُهُ، ويستدلُ عليه بآياتٍ منَ القرآنِ الكريم -وقد كَفَّرَ الغزالي الفَلاسِفةَ؛ لإنكارِهم علمَ اللهِ تعالى بالجزئيات.

٩- **إثباتُ قِدَمِ علْمِ اللهِ تعالى.**

عِلْمُ اللهِ تعالى قديمٌ ثابتٌ لا شكَ فيه، ورغمَ وضوحِ ذلك يُنَبِّهُ الحارثُ المحاسبيُّ على قِدَمِهِ وأنّهُ تعالى لا يستأنفُ علمًا بأيِ شيءٍ حَدَثَ من الحوادث، ويستدلُ على إثباتِه للهِ تعالى فيقولُ: "وجَلَّ اللهُ تعالى أنْ يستأنِفَ عِلمًا بشيء. وكيفَ؟! وكلُ شيء يكونُ فهو يُكوِّنُهُ، فلمْ يأتِ [شيء للوجودِ] إلّا وقد تقَدَّمَ العلمُ منه [تعالى] به، وكيفَ يأتي [ذلكَ الشيء]، وكيفَ يكونُ؛ ولو لَمْ يكنْ يعلمُ كيفَ يكونُ[الشيء] ما أحسّنَ أنْ يُكَوِّنَهُ أبداً؛ لأنَّه مَنْ ليس له عِلمٌ بما يريدُ أنْ يصنَعَهُ. كيف يُحْسِنُ أنْ يصنَعَه؟!! ومَنْ لم يُحْسِنْ كيفَ يصنعُه، لم يقْدِرْ أنْ يصنَعَه[1].

وهذا نجدُهُ ضَرورَةً في فِطَرِنَا، فلو لم نَرَ كِتَابًا قط، لم نُحْسِنْ أنْ نكتُبَ [كتابًا]، ولمْ يَجُزْ لنا [أي ولا يُتَصَوَّرُ منَّا] أنْ نكتبَ كِتابًا -مؤلَّفًا بمعانٍ مفهومةٍ- بالتَخْمِينِ أبَدًا، وكذلك جميعُ الصِنَاعَاتِ، فمَنْ لمْ يَرَهَا فيعْلَمُهَا، أو تُوصَفَ لَه؛ فيَعْلَمُهَا لم يُحسِنْ أنْ يأتي بها أبداً. فاللهُ جلَّ ذكرُه أَوْلَى بعلمِ ما يكوِّنُهُ قبلَ أنْ يُكَوِّنَهُ"[2] وعليه فاللهُ تعالى أحقُّ وأولَى بعلمِ ما يريدُ خلقَهُ قبلَ إيجاده، وهكذا نجدُ المحاسبيَّ يستدلُ على إثباتِ العلمِ للهِ تعالى بالخلْقِ والإيجاد، فهوَ هنا يشيرُ الى أمرين: الأولُ: العلمُ بما يريدُ إيجادَهُ، وكيفَ يكونُ على أكملِ وجهٍ من الإجَادَةِ والإحسانِ والإتقانِ، الثاني: الإيجادُ والخلْقُ والتكوينُ الفعلي على الوجهِ الذي عَلِمَهُ تعالى. فالخلْقُ دليلٌ على العلمِ، فمَنْ لم يعلم الكتابةَ يستحيلُ وقوعُ أو إيجادُ الكتابةِ منه، فالخلقُ فرعٌ عن العلمِ، وهذا من الضَرورَاتِ والبَدَهِيَّاتِ العقليّةِ، فكأنّهُ يقولُ: لو لم يكنْ اللهُ تعالى عالمًا، لما وُجِدَ هذا العَالَم، لكن العَالَمَ موجودٌ بالمُشَاهَدَةِ، فثَبَتَ بذلك علمُهُ تعالى.

١٠- **إثباتُ قِدَمِ إرادةِ اللهِ تعالى.**

يستدلُ الحارثُ المحاسبيُّ على قِدَمِ الإرادةِ -كما أثبتَ قِدَمَ العلمِ- ويؤكدُ على أنَّ اللهَ تعالى لا

(١) - والمراد: من لم يحسن كيفية صنع شيء لم يقدر أن يصنعه. أي فمَنْ لم يعلم كيفية صُنعَ شيء لا يقدِرُ على إيجادِه؛ لأنّه لا يعرفه.

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٣٨.

تَحْدُثُ فيه الإرَادَاتُ؛ لأَنَّهُ تعالى ليسَ مَحَلاً للحوادثِ، فيقولُ عندَمَا تعرّضَ لبيانِ فهمِ قولِه تعالى: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا"(الإسراء/ ١٦). وقوله تعالى: "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"(النحل/ ٤٠): "ليس ذلك بِبدْءٍ منه لحدوثِ إرادةٍ حَدَثَتْ لهُ[١]، ولا أن يستأنفَ مشيئَةً لَمْ تكنْ لَهُ؛ فذلك فعلُ الجَاهِلِ بالعواقبِ الذي يريدُ الشيء وهوَ لا يعلَمُ العواقبَ، فلمْ يزلْ اللهُ تعالى يريدُ ما يعلمُ أَنَّهُ يكونُ، لم يستحدثْ إرادةً لَمْ تكنْ؛ لأنَّ الإراداتَ إنمّا تحدثُ على قدْرِ مَا لَمْ يَعْلَمْ المريدُ، فأمّا مَنْ لمْ يزَلْ يعلمُ ما يكونُ، وما لا يكونُ من خيرٍ أو شرٍ، فقدْ أرادَ على عِلمٍ، لا يحدثُ له بَدَاءٌ؛ إذْ كانَ لا يحدُثُ فيه عِلمٌ بِه"[٢]، فالحَارِثُ هنا ينطلقُ مِن ثبوتِ العلمِ للهِ تعالى الى الاستدلال علي إثباتِ قِدَمِ الإرادةِ، لأنَّ العَالِمَ بالشيءَ لا يستأنفُ إرادةً له؛ لسَبْقِ علمِهِ بما يريدُهُ، وعبارتُه صريحَةٌ واضحَةٌ في قوله عن البدء والاستئناف: "فذلك فعلُ الجَاهِلِ بالعواقبِ، الذي يريدُ الشيء وهوَ لا يعلَمُ العَواقِبَ"[٣]، أمّا من يعلمُ فلا يكونُ هذا شأنُهُ، بل إرادتُهُ قديمةٌ كعِلمِهِ تعالَى.

١١- كَلامُ اللهِ تعَالى صِفَةٌ مِن صِفَاتِه.

جاءَ في حاشِيةِ سيرِ أعلامِ النبلاءِ عند ترجمةِ الكرابيسي(ت٢٥٠هـ) ما نقلَه المحَقّقُ وعَزَاهُ الى الحافظِ ابنِ عبدِ البرِّ في الانتقاءِ عندَ ترجمتِهِ للكَرَابِيسِيِّ ما يلى: "وكانَ الكرابيسيُّ، وعبدُ الله بنُ كلابٍ، وأبو ثورٍ، وداودُ بنُ عليٍ [والبخاريُ، والحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ، ومحمدُ بنُ نصرٍ المَروزيّ][٤]

(١) – يريد: ليس ذلك بابتداء شيء له تعالى، ولا لحدوث ما لم يكن في ذاته تعالى؛ لأنه تعالى ليس محلاً للحوادث، ولأن إرادته تعالى قديمة.

(٢) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٤١، ٣٤٢.

(٣) –فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلي ص ٣٤١.

(٤) – هذه العبارةُ التي تنصُّ على: البخاري، والمحاسبي، والمروزي أضافها المحققُ ووضعَها بين قوسين مربعين، ولمْ أجدْها في الانتقاءِ لابنِ عبد البر في الموضعِ الذي أحالَ عليه المحققُ، ولا في سير النبلاء في الموضعين الذين أحال عليهما في هذا السياق أيضـًا. انظر الانتقاء لابن عبد البر ص١٠٦، وسير أعلام النبلاء(ج١١) بتحقيق أ/ صالح السمر، وإشراف أ/ شعيب الأرناؤوط ج ١١ص ٢٩١وص ٥١٠، لكنَّ الكلامَ في الموضعين يتناول الحديثَ عن الكلامِ في مسألةِ التَلَفُّظِ بالقرآنِ بين الخلقِ وعدمِه؟! ولعلَّه أضافَها من بعضِ النسخِ الخطِيَّةِ لكتاب الانتقاءِ، لكنّه لم =

وطبقاتُهم يقولونَ: إنَّ القرآنَ الذي تكلمَّ اللهُ به صفةٌ من صفَاتِه، لا يجوزُ عليه الخلقُ، وإنَّ تلاوةَ التَالي وكلامَه بالقرآنِ كَسْبٌ له وفِعْلٌ له، وذلك مَخْلوقٌ، وإنَّه حِكَايَةٌ عن كلامِ اللهِ، وليسَ هو القرآنُ الذي تكَلَّمَ اللهُ تعالى بهِ، وشَبَّهُوُهُ بالحَمْدِ".(١) فكَأَنَّ الحارثَ فَرَّقَ بين القرآنِ، والقراءَةِ- أى التَلفُّظ به- فالقرآنُ قديمٌ، واللفظُ أو التلفُّظُ به حَادِثٌ؛ فالمحاسبي يرى أنَّ القرآنَ الكريمَ -الذي هو تابع لصفة الكلام- في الأصلِ غيرُ القراءةِ -التي يقرَأُهَا القارئُ للقرآنِ- فالقراءةُ حَادِثةٌ مخلوقةٌ، وهى من كسبُ العبدِ، فكأنها فِعلٌ من أفعالِه، وهو مُغَايرٌ للقرآنِ الكريم، فهو غيرُ مخلوقٍ وغيرُ مُحْدَثٍ، بل هو قديمٌ. وشبَّهُوه بالحمدِ الواقعِ من العبد لله تعالى، فالحمدُ لله قديمٌ، واللفظُ المعبِّرُ عن الحمدِ حادِث.

١٢- إثباتُ الصِفَاتِ الخَبَريَّةِ مع التَنْزِيهِ.

من المعلومِ أنّ الكُلَّابِيَّـةَ يثبتونَ صفاتِ المعاني لله تعالى، وكذا يثبتون الصفاتِ الخَبَرِيَّـة، وفى بيانِ موقِفِ الحَارثِ المحاسبيِّ نجدُ الإمامَ ابنَ تيميةَ يجمعُ أعلامَ المدرسةِ الكُلَّابِيَّـة الثَلاثَةَ لينُصَّ على موقِفِهم من الصفاتِ الخَبرِيَّة بقولِه: "أهلُ الإثباتِ للصفاتِ، لهم فيمَا زادَ على الثَمَانيةِ صفاتٍ المَعروفة: ثَلاثَةُ أقوالٍ: أحدُهَا: إثباتُ صِفاتٍ أخرَى: كالرِضَى، والغَضَبِ، والوجهِ، واليدين، والاستواءِ، وهذا قولُ ابنِ كلاب، والحارثِ المحاسبيِّ، وأبي العباسِ القَلَانِسِيّ"(٢)، فالثلاثةُ، ومنهم المحاسبيُّ كلُهم من أهلِ الإثباتِ، بشهادةِ ابنِ تيميةَ، ومذهبُهُم واحدٌ هو: إثباتُ الصفاتِ الخبريةِ، ثم انتصرَ لهذا الإثباتِ -فقط لأنَّه يرفضُ تأويلَهَا- بأنَّه مذهبُ السلفِ والأئمةِ. ويسوقَ الإمامُ ابنُ تيمية روايةً أخرى تدلُ على أنَ المحاسبيَّ يثبتُ الصفاتِ الخبريةَ، بقوله : "قائمَةُ الصِفَاتِيَّةِ المتقدمون: كابنِ كلابٍ، والحارثِ المحاسبيِّ، والأشعريِّ، وأبي العباسِ القلانسيِّ، وأبي عبدِ اللهِ

يشرْ الى مصدر تلك الزيادة!؟ وقد نقلتها لأنها تشير لرأى للحارث، ولعل غيرى يكملُ ما توقفتُ عنده، ويتوصلُ لتحقيقِ موضع نقلها بعون الله تعالى.

(١)- سير أعلام النبلاء للذهبي بتحقيق أ/ صالح السمر، وإشراف أ/ شعيب الأرناؤوط- ترجمة الكرابيسى رقم (٢٣)ج ١٢/ ٨٠، والعبارة -عدا ما بين القوسين- كما نقلَها المحققُ موجودةٌ بنصِّها في كتاب الانتقاءِ لابنِ عبدِ البرِّ ص ١٠٦ -مكتبة القدسي بالقاهرة ط ١٣٥٠هـ.

(٢)- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم ٢/ ١٤٦- دار الكنوز الأدبية بالرياض ط: ١٣٩١.

بنِ مجاهدٍ، وأبي الحسنِ الطبريِّ، والقاضِي أبي بكر ابن الباقِلانِيِّ، وأبي إسحقِ الإسفراييني، وأبي بكر بن فُورك، وغيرُهم: يُثبتونَ الصفاتِ الخبريةِ التي ثَبتَ أنّ رسولَ اللهِ-صلى الله عليه وسلم- أخبَرَ بها....وهذا مذهبُ السلفِ والأئمة".(١)، فقد جمعَ ابنُ تيميةَ عدداً مِمَّنْ يقولُ بالإثباتِ؛ ليكونَ في قُوّةِ الإجماعِ على إثباتِها، فيسقطُ به قولُ المخالفِ دون عناء.

ويضيفُ الإمامُ الأشعريُ أمراً آخرَ في هذهِ المسألةِ هو: أنَّ تلكَ الصفاتِ إنّمَا تثبتُ خَبَراً بلا تَكْيِيْفٍ، فلا مجالَ لتَوَهُّم الكَيْفِيَّةِ مطلقاً، فيقول: "اختلفوا في: العين، واليد، والوجه...، وقالَ أهلُ الحديثِ: لسْنَا نقولُ في ذلك إلّا ما قالَهُ اللهُ تعالى عزّ وجلّ، أو جاءَتْ به الروايةُ عن رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فنقولُ: وَجْهٌ بلا كَيْفٍ، ويَدانِ، وعَينَانِ بلا كَيْفٍ، وقالَ عبدُ اللهِ بنِ كُلَّاب: أُطْلِقُ اليَدَ، والعَينَ، والوَجْهَ خَبَراً؛ لأنّ اللهَ تعالى أَطلَقَ ذلك، ولا أُطْلِقُ غَيرَهُ، فأقولُ: هي صِفَاتُ للهِ عزَّ وجلَّ، كمَا قالَ في العِلْمِ، والقُدْرَةِ، والحَيَاةِ إنَّها صِفَاتٌ"(٢)، فقدْ أشارَ الأشعريُّ إلى أنَّ ما رُوِيَ عن ابنِ كُلَّاب -ولا شكَّ أنَّ صاحبيه معَهُ- أنَّه يثبت ذلك خبراً؛ لورودِ ذلك في الأخبارِ، ولا يُطْلِقُ غيرَه، بل يَقِفُ عند ما جاءَ في الخبرِ والنصوصِ ولا يتجاوزُه لغيرِهِ من الاجتهاداتِ والأقيسةِ العقليَّةِ.

١٣- إثبَاتُ صِفَاتِ الأفْعَالِ للهِ تعَالى.

عندما تحدثَ البَيَاضِيُّ الحنفي صاحبُ كتابِ إشاراتِ المرامِ من عباراتِ الإمامِ عنِ إثباتِ الصفاتِ الفِعْلِيَّةِ التي هي راجِعَةٌ الى الأفعَالِ كالتَخْلِيقِ، والإبداعِ، والصُنْعِ، والإحياءِ، والإمَاتَةِ والترزِيقِ، التَصْوِيرِ، والإعَادَةِ، ونحوها ذكَرَ أنَّ الإمامَ أبا حَنيفَةَ النُعمَان يشيرُ في كلامَه عنها الى أمرين أولُهما: أنَّ صفاتِ الفعلِ حقيقةٌ وليست هي عبارةً عن مُجَرَّد تَعَلُّقِ القدرةِ والإرادةِ، كمَا قد يَظُنُّهُ البعضُ، وثانيهما: أنَّ تلك الصِفَاتِ الفِعْلِيَّةِ راجِعةٌ الى صفةٍ أزليَّةٍ قديمةٍ [متعلقةٍ] بذاتِهِ تعالى هي: الفعلُ والتكوينُ العامُ، لا إلى صفاتٍ متعددةٍ، ولا إلى عينِ الإضافةِ -كمَا قد يظنُ البعضُ- وأنَّ

(١)- شرح العقيدة الأصفهانية لأبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٨،٩ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ط ١٩٦٦.

(٢) - مقالات الإسلاميين للأشعري: أبي الحسن على بن إسماعيل(٣٣٠هـ) تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ١/ ٢٩٠- دون ناشر.

الإخراجَ من العدمِ الى الوجودِ ليس صِفةً أزليّةً بَداهَةً، فالله تعالى خالِقٌ قبلَ أنْ يَخْلُقَ، وفِعْلُ اللهِ تعالى غيرُ مخلوقٍ، والمفعولُ به هو المخْلوقُ. ثم سَاقَ البياضيُّ ما يشهدُ لذلك من كلامِ الإمامِ الأعظمِ أبي حنيفةَ، ثم أخذَ يسردُ من كلامِ العلماءِ ما يدلُ على اختيارِهم لقولِ الإمامِ أبي حنيفةَ، فذكرَ منهم الماتريدي، والنسفي، وابنَ كلابٍ، والحارثَ المحاسبيَّ فقال: "وهو مُختَارُ عبدِ اللهِ بنِ سعيدٍ القَطَّانِ في الرحمةِ، والكرمِ، والرضَى...، والحارثِ المحاسبيِّ"(١)، فالحارثُ المحاسبيُّ ممّن يثبتُ صفاتِ الأفعالِ حقيقَةً، وليسَت هي مجرَّدَ تَعَلُّقِ القدرةِ والإرادةِ بالأشياءِ، وأنَّها راجعةٌ لصفةٍ أزليةٍ قديمةٍ، وهى غيرُ الفعلِ الواقعِ من اللهِ تعالى بها، والفعلُ غيرُ المخلوقِ، وكلاهما -أي الصفة القديمةُ، والفعلُ- متمايزٌ عن خلقِ المفعولِ به الحَادِثِ الواقعِ بفعل تلك الصفةِ في العَالَم الخارجي. فهنا ثلاثةُ أشياءَ: صفةٌ قديمةٌ، وفعلٌ، ومخلوقٌ حادثٌ وقَعَ عليه أثرُ الصفةِ القديمة.

١٤- عُلُوُّ اللهِ تعالى على خَلْقِه مَعلومٌ بالفِطْرَة.

يروى الذهبي لنا في ترجمتِه لابنِ كلاب رأيًا للحارث المحاسبى؛ إذ يشير الى مُوافقة المحاسبيُّ لابن كلاب في بعضِ الآراءِ قائلاً: "وصَنَّفَ[يعنى ابن كلاب] في التوحيد، وإثبات الصفات، وأنَّ عُلُوَ الباري على خَلْقِهِ معلومٌ بالفِطْرَةِ، والعقْلُ على وَفْقِ النصِ، وكذلك قال المحاسبي في كتاب "فهم القرآن"(٢)، أي أنَّ المحاسبى يرى: أنَّ اللهَ تعالى عَالٍ على خَلْقِهِ، وعُلُوُّهُ تعالى معلومٌ بالفِطْرَةِ الصافية وبالعقل السليم؛ وعليه فهو مما لا يحتاج إلى جُهدٍ في الاستدلال وإيراد الحجُج علي إثباته، فكأن عُلُوَ الباري تعالى مما ينزل منزلة العلم الضروري البدهي.

١٥- إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعَالى وتَمَايُزُهُ عن الاستِوَاء.

عندَما تحدثَ الإمامُ ابنُ تيميةَ عن النزاعِ في مسألةِ الرؤيةِ، وهلْ تقتضِى الجِهَةَ أم لا؟ قال: "وقالت

(١) -إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين تأليف كمال الدين أحمد بن حسين بن سنان الدين البياضي زادة الرومي الحنفي البسنوى (ت ١٠٩٧هـ) تحقيق أحمد فريد المزيدي ص ١٨١-نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (١) ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. وطبعة عتيقة بتحقيق د/ يوسف عبد الرازق، وتصدير الشيخ زاهد الكوثري ص ٢١٤- نشر مصطفى البابي الحلبى بالقاهرة ط(١) ١٣٦٨/ ١٩٤٩م.

(٢)- سير أعلام النبلاء للذهبي في ترجمة ابن كلاب رقم(٧٦) ج١١/ ١٧٥.

طائفةٌ: إنّه يُرَى لا في جِهّةٍ: لا أمَامَ الرَآئي ولا خَلْفَهُ، ولا عن يَمِينِهِ ولا عن يَسَارِهِ، ولا فوقَهُ ولا تحْتَهُ. وهذا هو المشهورُ عند متأخِري الأشعَرِيَّةِ. فإنّ هذا مبنِيٌّ على: اختلافِهم في كونِ الباري تعالى فوقَ العرشِ؛ فالأشعريُّ، وقدماءُ أصحابِهِ كانوا يقولونَ: إنّهُ بذاتِهِ فوقَ العرشَ، وهو مع ذلك ليس بجسمٍ.

وعبدُ اللهِ بنُ سعيدِ بنُ كُلَّاب، وأبو العَبَاسِ القلانسي، كانوا يقولون بذلك، بل كانوا أكملَ إثباتًا من الأشعريِّ، فالعُلُوُ عندَهم من الصفاتِ العقليةِ، وهو عندَ الأشعريِّ من الصفاتِ السَمعِيَّةِ، ونقلَ ذلك الأشعريُ عن أهلِ السنةِ والحديثِ -كما فَهِمَهُ عنهم، وكانَ أبو محمدٍ بنُ كُلَّاب هو الأستاذُ الذي اقتَدَى بهِ الأشعريُّ في طريقِهِ، هو وأئمَّةُ أصحابِهِ: كالحَارِثِ المُحَاسَبِي، وأبى العباسِ القلانِسيّ، وأبى سليمانَ الدمشقِي، وأبى حاتِمٍ البستي، وخَلْقٌ كثيرٌ يقولون: إنّ اتِّصَافَه تعالى بأنّه: مُبَايِنٌ للعَالَم، عَالٍ عليه من الصفاتِ المعلومَةِ بالعَقْلِ، كالعِلْمِ، والقُدْرَةِ، وأمَّا الاستِواءُ على العرشِ فهو من الصِفَاتِ الخَبَرِيَّة".[1]

فنجدُ ابنَ تيميةَ يروى لنا عن الحارثِ المحاسبِيِّ رأيَه في إثباتِ العلوِّ للهِ تعالى، ويرَى أنَّه من الصفاتِ العقليةِ، وليس من الصفاتِ الخبريَّةِ، بخلافِ الاستواءِ على العرشِ فهو من الصفاتِ الخبريَّةِ، *فكأنَّ الكلامَ عن الاستواءِ خارجٌ عن محلِّ النزاعِ، فهو مُتَّفَقٌ على أنَّه من الصفاتِ الخبريةِ، ولم ينازعْ فيه أحدٌ*؛ إذ لا مَدْخَلَ للعقلِ في ذلك، وقد أثبتَهُ الحارثُ، وابنُ كلابٍ، والقلانسي، وغيرُهُم، بل نجدُ ابنَ تيميةَ يُثْنِى على المدرسةِ الكلابيةِ عامةً، ويرفعُ درجةَ ابنِ كُلَّابٍ، والحارثِ، والقلانسيِّ فوقَ درجةِ الأشعريّ، ويوضِّحُ الفرقَ بينهم وبين الأشعري : بأنهم يرونَه عقليًا-أي معلومًا بالعَقلِ- بينَمَا الأشعري اعتبرَهُ سَمْعِيًّا خَبَرِيًّا. وخُلاصَةُ الفرق بين العُلُو والاستِواء: أنَّ العلوَ من الصفاتِ العقليَّةِ، وفيه خِلافٌ، فقال الكلابيةُ بأنّه: عقليٌ، وقال الأشعري هو: خَبَرِيٌّ سمعِيٌّ، وأمّا الاستواءُ فهو خبَرِيٌّ بلا خِلافٍ فيه -كما ذكرَه ابنُ تيميةَ.

١٦- إثبَاتُ الفَوْقِيَّةِ مع التَنْزِيه.

يحاولُ المحاسبِيُّ إثباتَ الفَوْقِيَّةِ لله تعالى مع التَنزِيهِ المُطلقِ رافِضًا ما يراهُ البعضُ مِنْ أنَّ اللهَ تعالى

(١)- منهاج السنة لابن تيمية ٢/ ٣٢٧.

في كلِّ مكانٍ مُستَدِلاً على إثباتِ الفَوقِيَّةِ للهِ تعالى بالآياتِ التي تُشيرُ الى: الصُعُودِ، والعُروجِ كقوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ "(فاطر/١٠)، وقوله تعالى: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ"(السجدة/٥)، فيقول: "فهذا المقْطَعُ يُوجِبُ أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ فَوقَ الأَشْياءِ مُنزَّهٌ عن الدخولِ في خَلقِهِ لا يَخْفَى عليهِ منهم خَافِيةٌ؛ لأَنَّه أَبَانَ في هذه الآيَةِ أَنَّ ذاتَهُ بنفسِهِ فَوقَ عبادِه؛ لأَنَّه قالَ: أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"(الملك/١٦) يعنى: فَوقَ العَرْشِ، والعَرْشُ فوقَ السَمَاءِ، لأَنَّ مَنْ كَانَ فَوقَ شَيءٍ على السَمِاءِ، فَهو في السَمَاءِ".(١)

كذا نجدُ المحاسبيَّ يرفضُ ما يوهمُ غيرَ ذلك العلوِّ والفَوقيَّةِ؛ فيرُدُّ ظاهِرَ تلكَ العبَارَةِ القَائلَةِ: بأَنَّ اللهَ تعالى في كُلِّ مَكَانٍ، مُسْتَدِلاً في ردِّهَا بقولِه تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا".(غافر/٣٦،٣٧)، ويقولُ في بيانِهِ لوجهِ الاستدلالِ بهذِه الآيةِ: "وقالَ عن فرعونَ: لعَلِّي أَبلُغُ الأسبابُ أسبابَ السماواتِ، ثم استأنَفَ فقَالَ [فرعونُ]: وإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا فيمَا قالَ لِي: إِنَّه في السَمَاءِ، فطَلَبَهُ حيثُ قالَ له موسى [أى طلبَه في السماءِ] مع الظَنِّ منه بموسى -عليه السلام- أَنَّهُ يَكذِبُ عليه، ولو أَنَّ موسَى -عليه السلام- أخبَرَهُ: أَنَّهُ في كلِّ مكانٍ بذَاتِهِ؛ لطلَبَهُ في الأَرْضِ، أو في بيتِهِ، وبدَنِهِ، ولم يَتَعَنَّ ببنْيَانِ الصَرْحِ"(٢) فالحارثُ يستدلُ بظاهر فهمِ فرعونَ، وفعلِه وتكبدِه العَنَاءَ -مع ظَنِّهِ بكذبِ الخبرِ- وما ذلك إلَّا لأَنَّهُ فهِمَ من النصِ: أَنَّ اللهَ تعالى فَوقَ السَمَاءِ، وليس في أيِ مكانٍ غيره، وأَمَّا ما يَدُلُ على: المَعِيَّةِ أو العمومِ في الأَمْكِنَةِ فمَحمولٌ على: العِلمِ والإِحَاطَةِ والهَيْمَنَةِ والـمَلَكوتِ، وليس على ظَاهرِه الـمُوْهِمِ -واللهُ أعلمُ بمرادِ كلامِهِ- ثم نجدُ الحارثَ يقولُ في موضعٍ آخرَ بعدَ هذا، مُقَرِّراً ذلك في هَوادةٍ ولِينٍ بعدَمَا فرَغَ من الاستدلالِ عليه هنا: "وهو على عَرشِهِ فَوْقَ كلِّ شيءٍ"(٣).

١٧- بَيَانُ مُنْتَهَى الصُعُود.

(١) -فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٤٨، وبتحقيق د/ خالد ص ص ١٣٠.

(٢) -فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص٣٥١، ٣٥٢،وبتحقيق خالد ص١٣١، ومعنى لم يَتَعَنَّ: لم يتكلَّفْ عناءَ بناءِ الصَرْحِ.

(٣) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٦٥، ٣٦٦، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٣.

رغمَ أننَا نجدُ الحارثَ المحاسبيَّ يتأولُ بعضَ الآياتِ، غيرَ أنَّه قد يأخُذُ بعضَ الآياتِ على ظواهِرِها، ونجدُ ذلك واضِحًا عند الحارثَ في تفسيرِ المرادِ بالعروجِ والصعودِ من مثلِ قولِهِ تعالى: "تَعْرُجُ الـمَلَائِكَةُ والرُوحُ إِلَيْهِ"(المعارج/٤)،وقوله تعالى: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ"(فاطر/١٠) يقولُ: "...فَقَدَّرَ [اللهُ تعالى] صعودَها وفَصَّلَهُ مِنْ قوله: (إليهِ) كقولِ القائلِ صَعَدْتُ إلى فلانٍ....فإذَا صَعَدوا إلى العرشِ، فقد صَعَدوا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، وإنْ كانوا لم يرَوْهُ، ولم يسَاوُوْهُ في الارتِفَاعِ في عُلوهِ، فإنَّهم قد صَعَدوا من الأرضِ، وعَرَجوا بالأمرِ إلى العُلُوِّ الذي اللهُ -عزّ وجلَّ- فَوْقَهُ"(١)، فقد بلَغوا بذلك منتَهى الصُعُودِ الممكنِ لهم، ولا شكَّ هنا في أنَّ منتَهَى الصعودَ الى العَرشِ، لا الى الذاتِ العَلِيَّة، أو إلى حيثُ شاءَ اللهُ، تعالى اللهُ ربى أنْ تُحيطَ به الأفْهَامُ أو تتَصَورَهُ الأوْهَامُ.

١٨- تأويلُ (في) الْمُوهِمَةِ للظَرْفِيَّـة.

رغم أنَّ الحارثَ قد يجنحُ إلى الأخذِ بالظاهرِ إلَّا أننَا نجدُه في مَغَبَّةِ حرصِهِ على التنزيهِ المطلقِ للهِ تعالى يجتَهِدُ في تَأويلِ ما يُوهِمُ ما لا يليقُ بذاتِ اللهِ تعالى المِقدَّسةِ -فهدَفُهُ في الأمرين هو التنزيهُ ودَفْعُ ما يوهِمُ المُشَابَهَةِ- فيقولُ المحاسبى في بيانِ المرادِ من قولِ اللهِ تعالى: "أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ"(الملك/١٦): يعنى فوقَ العَرْشِ، والعَرْشُ على السِمَاءَ، لأنَّ مَنْ كان فَوقَ شيءٍ على السماءِ فهو في السماءِ، وقدْ قالَ تعالى: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ"(التوبة/٢) يعنى: على الأرضِ، ولا يُريدُ الدُخولَ في جَوفِهَا، وكذلك قولُه تعالى: "ولأُصَلِّبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَخْلِ"(طه/٧١) يعنى: فَوقَهَا"(٢) فنَجدُ المحاسبيَّ هنا: يشيرُ إلى أنَّ هذه النصوصَ التي جاءَ فيها لفظَةُ: (فى) ليست على ظاهرِ معنَاهَا المفيدِ للظرفيَّةِ، التي تَوهمُ الحَيِّزَ والتَقْدِيرَ بقَدْرٍ مُعَينٍ، أو غيرها من المُحَالَاتِ التي لا تليقُ بذاتِهِ المُقدَّسَةِ جلَّ وعَلَا، فليس الله تعالى في السماءِ على معنى الظرفِيَّةِ، بل على معنى الفَوقِيَّةِ والعُلُوِّ والارتِفَاع.

١٩- تَأويلُ الـمَعِيَّـةِ بالعِلْم.

يقولُ المحاسبيّ عند بيانِ المرادِ بقولِه تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٥١، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٠.

(٢) -فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٤٨، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٠.

مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ". (المجادلة/ (٧)) "فبَدَأَ بالعِلم، وأخْبَرَ أَنَّهُ مع كلِّ مُناجٍ حيثُ وُجِد، وختَمَ الآيةَ بالعِلمِ فقالَ: إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ: فبَدَأَ بالعِلمِ، وختَمَ بالعِلمِ، فبيَّنَ أنه أرادَ: أَنَّهُ تعالى يَعْلَمُهم حيثُما كانوا لا يخْفَوْنَ عليه ولا تَخْفَى عليه مُنَاجَاتُهم تَفَرَّدُوا أو اجتَمَعوا، ولو اجتمَعَ قومٌ في السِفَلِ، [ورَجُلٌ] نَاظِرٌ إليهم في العُلُوِ يَسْمَعُ كلامَهم فقالَ: إِنِّى لمْ أزَلْ مَعَكُمْ أرَاكُمْ وأعْلمُ مُنَاجَاتِكُمْ، كانَ صَادِقًا، ولله المَثَلُ الأعلَى عن شِبهِ الخَلْقِ"(١) فقد تأوَّلَ المحاسبيُّ المَعِيَّةَ الواردةَ هنا على أنَّهَا مَعِيَّةُ العلمِ والإحاطة، مُستَدِلاً بورودِ العلمِ في أوَّلِ الآيةِ وفي آخِرِها، ومُؤكِّداً فَهْمَهُ بالاستدلالِ بالواقِعِ في العُرْفِ اللُّغَوِيّ والاستعمَالِيّ لألفاظِ اللغةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ الكَريم واللغة حُجَّةٌ. حاكِمة.

٢٠- **تَأويلُ القُرْب.**

يقولُ المحاسبيّ عند تفسيرِ المرادِ بقولِهِ تعالَى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"(ق/١٦)، فقالَ في بيانِ المرادِ بالقُرْبِ: "أي بعلمِهِ، فتكونُ الإحاطَةُ بالعلمِ أقربَ إليه مِنْ عِرْقِ قلبِهِ المتَّصِلِ بقلبِهِ، فإنْ أبَوا إلَّا ظَاهِرَ التِلاوةِ: فإنَّ مَا قَرُبَ من الشيءِ ليسَ هو في الشيء، وأقربُ ما يكونُ منه أنْ يُلاصِقَهُ، ولم يقلْ اللهُ تعالى: إنِّى في حبلِ الوريدِ ولا إنِّى أقربُ فيكم من حبلِ الوريدِ، وظاهرُ التلاوةِ أنَّه ليسَ في حَبْلِ الوريدِ؛ لأنَّهُ لو كانَ في حبلِ الوريدِ، لصارَ حبلُ الوريدِ أقربَ إلينَا؛ لأنَّهُ ما كانَ فيه شيءٌ، فقد حَوَاهُ، وآخَرُ حَوَاهُ، وهو دُونَهُ، كرَجُلٍ يكونُ في بيتٍ [يريد في حجرة] في دارٍ، فجدارُ البيتِ أقربُ إلي الدارِ مِمَّنْ هو في البيتِ، ولو كانَ ذلكَ كذلكَ لكانَ آخِرُ حبلِ الوريدِ أقربَ إلى قلوبِنا منهُ، ومُحَالٌ أنْ يكونَ ما في الوريدِ أقربَ الى الجسمِ من حبلِ الوريدِ، وإنّمَا يكونُ أقربَ الى الجسمِ من حبلِ الوريدِ، إذا لم يكُنْ في حبلِ الوريدِ، وكانَ خَارِجًا منه، أو كانَ بعضُهُ في حبلِ الوريدِ، وبعضُهُ خَارِجًا منه إلى الجسمِ، فذلكَ تَبعِيضٌ! ففي ظاهرِ التلاوةِ على دَعْوَاهُم[أي المخالفين]: ما يدلُ على أَنَّهُ ليس في حبلِ الوريدِ كُلُّهُ، وإنّمَا يدلُ على أَنَّه: إمّا خارجٌ منه، أو بعضُه

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٥٢، ٣٥٣، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣١.

خارجٌ منه[١]. والقُربُ في رأيِ المحاسبيِّ ليس قربَ مكانٍ وإنّما قربِ علمٍ وإحاطةٍ لتصريحِهِ بذلك قائلاً: "أي بعلمِهِ، فتكونُ الإحاطَةُ بالعلم أقربَ إليه مِنْ عِرْقِ قلبِهِ المتَّصِلِ بقلبِهِ"، وكان الدافعُ له إلى هذا التأويلِ هو تنزيهُ اللهِ تعالى عَمَّا لا يليقُ بِهِ جَلَّ وعَلا.

٢١- تأويلُ مَا يُوْهِمُ الحُلولَ والظَرْفِيَّة والتَعَدُّد.

نجدُ المحاسبيَّ عندما تعرَّضَ لفهم قولِ اللهِ تعالى: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ"(الزخرف/ ٨٤): ينتهى الى: أنَّ هذه الآيةَ على تقديرِ مضافٍ محذوفٍ، ويحملُ معنى الأُلوهِيَّةِ على التدبيرِ لشئونِ أهلِ السماءِ والأرضِ معًا، ويُعَوِّلُ على اتصَالِ الكَلامِ دونَ فَصلٍ، فالسياقُ مُتَّصِلٌ، ورغمَ ذلك لا يُفْهَمُ منها تَعَدُّدُ الآلِهَةِ في السماواتِ وفى الأرضِ، بلْ هو إلهٌ واحدٌ فيهما، فيقولُ: فلمْ يقُلْ: [وهو الذى] في السماءِ، ثم قطَعَ [السياقَ بكلامٍ آخَرَ] كمَا في قولِهِ تعالى: "أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ"(الملك/١٦) [بل وَصَلَ] فقالَ: (فى السماءِ إلّهٌ) فأخبرَ أَنَّهُ تعالى إلَهُ أهلِالسَمَاءِ، وإلَهُ أهلِ الأرضِ، وذلك موجودٌ في اللغَةِ، [فيجوزُ] أنْ يقالَ: مَنْ بِخُرَاسَان؟ فيقال: ابنُ طَاهِر[٢]،وإنَّمَا هو في مَوضَعٍ[محدودٍ منهَا فقط]. فجائزٌ أنْ يُقالَ: ابنُ طَاهِرٍ أميرٌ في خراسَانَ وفى بَلْخٍ وسَمَرْقَنْدَ، وكلِّ مُدُنِهَا [ولا يقتَضِى ذلك تَعَدُّدُ ابنِ طاهرٍ، ويَصِحُّ قولُ] هذا، وإنّمَا هو [أى ابنُ طاهرٍ] في موْضِعٍ واحدٍ، يخفَى عليهِ ما وراءَ بيتِه، ولو كانَ [المرادُ] على ظاهرِ اللَّفظِ، وفى معنى الكَوْنِ[٣] ما جازَ أنْ يُقالَ: [إنَّه] أميرٌ [حتى] في البلدِ الذي هو فيه؛ لأنَّه في موضعٍ واحدٍ من بيتِهِ أو حيثُ كانُ، وإنَّمَا هو في موضعِ جُلوسِهِ، وليسَ هو في دارِه أميراً، ولا في بيتِهِ كلِّهِ، وأَنَّمَا هو في موضعٍ منه، لو كانَ معنى هذا معنى الكَوْنِ، فكيفَ العَالِى فَوقَ كلِّ شَيءٍ؟! لا يخفَى عليه شَيءٌ من الأشياءِ يُدَبِّرُهُ، فهوَ إلَهُ أهلِ السَمَاءِ وإلهُ أهلِ الأرضِ فهو فيهما إلَهٌ؛ إذْ كانَ مُدَبِّراً لهمَا، ولِمَا فيهما، وهو على عَرشِهِ فَوقَ كُلِّ

(١) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٥٤، ٣٥٥، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٢.

(٢) – ابن طاهر: هو عبد الله بن طاهر بن الحسين أميرُ المشرقِ، وَلِيَ خُراسَان ٢١٤هـ، ومِصرَ ٢٢١هـ، ثم عادَ واليًا لخراسان، توفى ٢٣٠هـ. البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣٠٢.

(٣) – يريد في معنى الحلول والتحقق والتحيز والحصول في الحيِّز المحدد له بظاهر اللفظ.

شَيءٍ"[1].

فنجدُ الحارثَ المحاسبِيَّ هنا يميلُ إلى التأويلِ لهذا الظاهرِ؛ دفعـًا لأمرين هما: الحلولُ المتَوَهَمُ من الظرفيةِ من لفظِ (فى)، ودفعـًا لتعدُّدِ الآلهةِ المتَوَهَمِ من التكرارِ في لفظِ(إله)، فبالقول بالمجاز يتحقَّقُ للحارثِ ما يهدفُ إليه من: تنزيهِ اللهِ تعالى عن الظرفيةِ أو الحلولِ والتعددِ، فالمرادُ: أنه سبحانه وتعالى إلهُ أهلِ السماءِ وإلهُ أهلِ الأرضِ، فمعنى أُلوهِيَّتِهِ فيهما ليست على معنى: الحلولِ والكَوْنِ فيهما، بل على معنى: التدبيرِ الكامِلِ لكلِ ما فيهِما، فكَأَنَّ المجازَ الذي يريدُ أنْ يسلُكَهُ الحارثُ مجازٌ بالحذفِ، فالمضَافُ محذوفٌ وهو: (أهلُ)، والمذكورُ هو المُضافُ إليه وهو: السماءُ، والأرضُ، وعليه فَكَأَنَّ أصلَ الكلام: وهو الذي إلهُ أهلِ السماءِ، وإلهُ أهلِ الأرضِ. مع مراعاةِ التقديمِ والتأخيرِ فكَأَنَّ نظمَ الكلامِ مع وجودِ حرفِ الجَرِّ (فى): وهو الذي إلهٌ في السماءِ، وإلهٌ في الأرضِ، وبتقديرِ المحذوفِ يكونُ النظمُ هكذا: وهو الذي إلهُ أهلِ السماءِ، وإلهُ أهلِ الأرضِ كمَا قال الحارثُ. لكنْ تبقى اشكاليةُ (فى) أين هى؟ أو ما الذي حَلَّ مَحَلَها؟!

ولذا قد يكونُ التقديرُ والنظمُ مع وجودِ لفظِ: (فى) صريحـًا هكذا: وهو الذي في السماءِ إلهُ أهلِهَا، وفى الأرضِ إلهُ أهلِهَا، هكذا بتقدير المضافِ والمضافِ إليهِ معـًا، مع الإضافةِ الى الضميرِ: (هَا) منْ كلمةِ: أهلِهَا[2] العائدِ على المتقدِّمِ ذكرُهُ من السماءِ أو الأرضِ، وتكونُ جملةُ (إلهُ أهلِها) مُفَسِّرَةً لشبْهِ الجملةِ قبلَها -فى السماء- ومعنى إلهُ أهلِها هنا: أى المُدَبِّرُ لكل شئونِهما. واللهُ أعلمُ بمرادِه من كلامِه جَلَّ ربى وتعالى.

---

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٦٥، ٣٦٦، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٣.

(٢) - وبيان(إلَهُ أهلِها): أنَّ كلمةَ: (إلَه) خبر وهو مضاف إلى أهل، و(أهل) مضاف إليه، وأهل مضاف (والهاء) مضاف إليه.

ويمكن أن نقول أيضـًا: (إلهٌ لأهلِها)، فتكون إلهٌ منونةً بالرفع مبتدأ مؤخر وجوبـًا لأنه نكرة، وشبهُ الجملةِ قبلَه (فى السماء، أو في الأرض) في محلَ رفعَ خبر مقدم وجوبـًا، و(لأهلها) اللام: حرف جر، وأهل: مجرور بها، والهاء: ضمير مبنى في محل جر مضاف إليه، وهى متعلقة بإله.

٢٢- وجُوبُ الإيمَانِ بالقَضَاءِ والقَدَر.

يصرّحُ الحارثُ المحاسبيُّ بوجوبِ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وهذا ركنٌ من أركانِ الإيمانِ التي تضَافرَتْ عليها نصوصُ الكتابِ والسنةِ، ولذَا قالَ المحاسبيُّ: "واعلمْ أنّكَ لنْ تجدَ طعمَ الإيمانِ حتى تؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ"(١)، فلنْ يتَحققَ الإيمانُ في العبد إلَّا بالإيمانَ بالقَضَاءَ والقَدَرِ، خيرِّهِ وشرِّهِ، حلوهِ ومرهِ -على ما جاءَ في السنةِ النبويةِ عن نبينا(ﷺ).

المبحث الثاني: آراؤهُ في مَسَائِلِ النُبُوات والسَمْعِيَّات

١- الحِكْمَةُ من إرسَالِ الرُسُلِ عليهم السلام.

يقرِّرُ الحارثُ أنَّ معرفةَ اللهِ تعالى ضرورةٌ عقليَّةٌ تُنَالُ بالتَفَكُّرِ في الشَواهِدِ والأدِلَّةِ، ثم يجعَلُ إرسالَ الرُسُلِ لتأكيدِ تلك المعرفَةِ العقليَّةِ، ثم يشيرُ إلى أنَّ الحكمةَ من إرسالِ الرُسُلِ -عليهم السلام- هي إقامةُ الحُجَّةِ علي العبادِ وقطعُ المَحَجَّةِ والاعتراضِ فيقولُ: "فألزَمَهم بذلك حُجَّةً مِن عقولِهم بما شَاهدوا...، ثمَّ أكَّدَ الحجَّةَ عليهم بإرسال الرُسُل -عليهم السلام- إليهم، فنبَهَهُم على النظرِ بما شاهدوا من الآياتِ الظاهرةِ.....ولم تكن الرُسُلُ لتعرِفُ صفاتِهِ تعالى، ولا ما يُحِبُّ ويَكْرَهُ، فيعلموا غَيْبَهُ تعالى كما علمَ غُيوبَهم فيكونوا أرْبَابًا مثلَهُ تعالى، ولم يكونوا ليعرفوا صفاتِه...،ولا ما يُكْرِمُ به مَنْ أطاعه، ولا ما يريدُ أنْ يُهِنَ به مَنْ عَصَاهُ أبَداً...، ثم تكلَّمَ بذلك بذاتِهِ...،فأرسَلَهم بكلامِه ووصفَ لهم صفاتِهِ الكَامِلةَ، وأسماءَهُ الحُسنَى، وما يَرْضَى بِه، وما يُسْخِطُهُ من الأعمالِ، وما أعدّ لِمَن أطاعهُ من الثوابِ الجَزيلِ...، والنعيمِ المقيمِ، وما أعدّ لأعدائِهِ من أليمِ العذابِ وشديدِ العقابِ في اليوم الذي يَعرِضُ فيه عبادَه، ويُحَاسِبُ خَلقَهُ...؛ فأرْسَلَ بذلك الأمنَاءَ من رُسُلِهِ فقطَعَ بهم -عليهم السلام- العُذْرَ، وأزاحَ بهم العِلَلَ، وقالَ جَلَّ من قائلٍ: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"(النساء/ ١٦٥) وقال تعالى: "أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ :(المائدة/ ١٩)، ثم أخبرَ عبادَهُ أنَّهُ وجَّهَ إليهم النُذُرَ

(١) - رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى ص ٥٦- تحقيق وتعليق/عبد الفتاح أبو غدّة -نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب- دار السلام للنشر والطباعة والتوزيع ط (٢) ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

بكلامهِ وقولِه، فقال تعالى: "وَمَنْ أَصدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً"(النساء/ ١٢٢).[1].

وإذا تأملنا كلامَ الحارثِ المحاسبيّ هذا وجدَنَا فيه إشارةً إلى عِدَّةِ أمور عَقَدِيَّةٍ منها:

١. التَعْويلُ على الأدلَّةِ والحُجَجِ العقليةِ واعتبارُها حتى في خطابِ اللهِ تعالى الخالقِ الأعلى لعبادِهِ.

٢. أنَّ الرُسُلَ -عليهم السلام- يؤكدونَ ما يهتَدِى اليه العقلُ ويُقِرُّونَه، ويُقَرِّرُونَهُ، ولا يُصَادِمونَه ولا يُعَارِضونَه.

٣. أنَّ من مُهِمَّةِ الرُسُلِ -عليهم السلام- تنبيهُ العقولِ واستثارةُ التفكيرِ لدَى المخاطبين والحثُ على إعمَالِ العُقولِ في كلِّ ما تَرَاه العيون من الأنفِسِ والآفَاق.

٤. أنَّ من ضمن الحِكَمِ المتعَدِّدَةِ من إرسالِ الرُسُلِ: إقامَةُ الحُجَةِ وقَطعُ المَحَجَّةِ كما صرح به الكتابُ العزيز.

٥. أنَّ الرُسُلَ -عليهم السلام- بَشَرٌ اختارِهم اللهُ واصطَفَاهم، فهم لا يعلمون من الغيبِ شَيئًا مُطلَقًا -سواءٌ في ذلك ما يتعلقُ بالله تعالى كصفاتِهِ وأسمائِهِ.....، ولا ما يتعلقُ بأمورِ المكلفين لا في الدنيا، ولا في الآخرة- فلا عِلمِ لهم إلَّا ما أَعْلَمَهُم اللهُ تعالى بالوحيِ إليهم.

٦. إثباتُ بعضِ أمورِ المَعَادِ مثل: اليومِ الآخرِ والبعثِ، والحسابِ، والجَزَاءِ والثَوابِ والعِقَابِ...

٧. إثباتُ صفةِ الكلامِ لله تعالى، وأنّها صفةٌ ذاتيةٌ، وأنَّ كلامَهُ هو: ما أوحى به إلى عبادِه بواسِطةِ الرُسُل -عليهم السلام.

٨. الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يحبُّ ويكرَهُ، ويرضَى ويسخَطُ، ويثيبُ ويكرمُ الطائعَ ويعاقبُ ويهينُ العاصي.

٩. نجد المحاسبيّ يستدلُ بنصوصٍ متعددةٍ من القرآن الكريم، وهذا وقع منه مع تأكيدِهِ على قيمةِ العقلِ وتعويلِهِ عليه، واعتدادِهِ به أيّمَا اعتدادٍ؛ وعليه فهو يزاوجُ بين العقلِ والنقلِ ويجمعُ بين المنقولِ والمعقولِ على السَواءِ، فكان مُؤَسَّسًا بذلك لمنهجِ الوسطيَّةِ والاعتدالِ في الاعتماد على كلٍ من العقلِ والنقلِ في الاستدلال، دونَ غُلوٍ في تقديم أحدِهما على الآخر، بل يجمعُ بينهما، فلا إفراطَ ولا تفريطَ في منهج الحارث المحاسبى بل وسَطيَّةٌ واعتدال.

(١) - فهم القران للحارث تحقيق د/ القوتلى ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

٢- وجُوبُ عِصْمَةِ الأنبيَاءِ عليهم السَلام.

عصمةُ الأنبياءِ -عليهم السلام- أمرٌ ثابتٌ، وهو من جملةِ العقائدِ الإسلاميةِ، والحارثُ المحاسِبى ينصُّ على عصمةِ الأنبياء -عليهم السلام- من الخَطأ في الدينِ والبلاغِ عن اللهِ تعالى، وفى ذلك يقولُ المحاسبى: ألا ترى أنَّ الاستماعَ إلى الرُسُل -عليهم السلام- والتَفَهُّمَ عنهم أولى وأرفعُ عند الناسِ؛ لعظّمِ قدرِهم؛ لأنَّهم عن الله -عز وجل- أخذوا علمَهم، وأنَّهم معصومون عن الخَطأ من الله جلَّ وعزَّ[١] في دينه تعالى؛ فقد لزمَ قلوبَ المؤمنين الأمانُ من الخطأ، فيمَا أخذوا عنهم من العلم وكذلك اتِّباعُ الرُسُلِ أرفعُ في العلم مِمَّن دونَهم من التابعين، فاعْرِفْ هذا، واعرِفْ أنَّ القرآنَ كلامُ مَنْ؟! وهل أحدٌ أعلمُ منَ قائلِه والمتكلمِ به تعالى!؟"[٢] فالمحاسبىّ يشيرُ هنا الى أنَّ اللهَ تعالى عَصَمَ أنبياءّه -عليهم السلام- من الخطأ وألقَى في قلوبِ كلِّ مَنْ آمنوا بهم واتبعوهم الأَمَانَ من احتمالِ الخَطأ، بل وَثِقَ المؤمنون بالرُسُلِ في كلَّ ما بلَغُوه إليهم، وقَبِلوهُ عنهم؛ وذلك لما استَقَرَّ عندهم من وجوب عصمتهم -عليهم السلام.

٣- إثباتُ التَكْلِيفِ والمَعَادِ والجزَاءِ.

يشيرُ الحارثُ الى بعضِ أمورِ المعادِ ويجعلُها إسَاسًا وأصلاً، حتى يجعلك تكادُ تفهمُ من كلامِه: أنَّه يجعلُ الميعادَ والجزاءَ عِلَّةً للخلقِ، فاللهُ تعالى لم يخلقْ الخلقَ عبثًا، بل خلقَهم، فكَلَفَهم؛ ليجازيهم على أعمَالِهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ، وتأملْ معى قولَه: "لم يخلق [اللهُ تعالى] خلقَه عَبَثًا، ولا تركَهم سُدَى، ولكن أرادَ أنْ يتعرفَ الى عبادُهُ بآياتِه البيِّنَةِ، ودلائلِه الواضِحَةِ، ليؤدوا واجبَ حَقِه، ويجتنبوا مَسَاخِطَه،[فخلَقَهم] لغيرِ حاجَةٍ إلى طاعتِهم، ولكن ليستحقَّ الثَوابَ مَنْ أنابَ وأجَابَ، ويستحق العقابَ مَنْ جَحَدَ وارْتَابَ"[٣] نعوذُ بالله تعالى من الشكِ والارتيابِ، ونشهَدُ أنّ اللهَ

(١) - في تلك العبارة تقديمٌ وتأخيرٌ والمراد: أنهم معصومون -من الله تعالى- عن الخطأ في دين الله تعالى، فشِبْهُ الجملة -من الله- متعلِّقٌ بمعصومين، فالمرادُ هنا: بيانُ مصدرِ ومنشأ العصمة، وأنها كائنةٌ من الله تعالى حِفْظًا لهم عليهم السلام، وحِفَاظًا على دينِهِ عزَّ وجلَّ.

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٢٦٤.

هو الحقُ المبين، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال، فكلامُ الحارثِ يشيرُ الى حكمَةِ اللهِ تعالى في الخلقِ، وإلى أنّ علَّةَ الخلقِ تتلخصُ في التكليفِ بمعرفتِه وطاعتِه تعالى، فلم يخلقْهم لاحتياجِهِ لمعونتِهم، ولا لاحتياجه إلى طاعتِهم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو يصَرِّحُ بنفيِ احتياجِ اللهِ تعالى الى خلقِهِ، ويشيرُ إلى ما يترتبُ على التكليفِ من الجزاءِ، ويشيرُ الى أنّ معرفَةَ اللهِ تعالى عَقليَّةٌ، تحصلُ بالأدلةِ العقليةِ الدالةِ عليه تعالى.

٤- تَقْسيمُ الذُنوبِ الى كَبائرَ وصَغائر.

يسلكُ الحارثُ المحاسبيّ التَوَجُّهَ العامَ لأهلِ السُنَّةِ والجماعةِ في تقسيمِ الذنوبِ الى قسمين: صغائر، وكبائر، بعيداً عن الشَطَطِ والغُلوِّ، فيقولُ: ولا تُحَدِّثَنَّ نفسَكَ بخَطيئَة، ولا تُصِرَنَّ على صَغِيرَةٍ"[١] فقد جعل المحاسبيُّ الصغيرةَ مقابلةً للخطيئةِ مقابلةَ تَقْسيمٍ، فَصَحَّتْ القِسْمَةُ للذنوبِ الى: صغائر، وكبائر.

٥- اعتِبَارُ الرِيَاءِ مِنَ الكَبَائر.

جرى الحارث المحاسبى على تقسيم الذنوبِ الى كبائر، وصغائر، وهو هنا يجعلُ الرياءَ -أعاذَنا اللهُ تعالى منه- مِنْ جُملَةِ الكبائرِ والفواحشِ، وقد روى ذلك السلمى الصوفيّ بعضَ أقوالَ الصوفيَّةِ في الرياءِ وذكرَ منهم الحَارثَ فقالَ: قالَ سهل: رؤيةُ الحاجةِ حسنةٌ، ورؤيةُ الحُجَة أحسَنُ، وقال الجنيدُ رحمة الله عليه: آثارُ مَشِيئةِ الهدايةِ عند أهلِ الهُدَى يُنْبِئُهُ قولُه تعالى: "وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ"(الأنعام/١٥١)، وقال حارثُ المُحاسِبيُّ: الفواحشُ: مَا أُريدَ به غيرُ اللهِ، وقال بعضُهم: ما ظَهَرَ من الفواحشِ في الأفعَالِ هو: الرياءُ، وما بَطَنَ منها: الدَعَاوَي الكاذِبَة".[٢]، ويؤكدُ ذلك ما يرويه السلمى عن الحارثِ في معنى اخلاصِ الدعاءِ قَائلاً: "وقالَ حارثُ المحاسبيّ: إخلاصُ الدُعاءِ: إخْرَاجُ الخَلْقِ من مُعَامَلَةِ اللهِ"[٣]، فهو بعينِهِ التَحذِيرُ من الرِيَاءِ بالعِبَادَةِ، لأجلِ اجتِلابِ وجُوهِ النَاسِ إليهِ، وهو الرياءُ

(١) - رسالة المسترشدين ص ١٣٠.

(٢)- تفسير السلمي المسمى: حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي ت ٤١٢هـ - ج١/ ١١٦ - تحقيق سيد عمران نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة:١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٣)- تفسير السلمي ج١/ ١٢٦. عند تفسير قوله تعالى: "وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ :(الأعراف / ٢٩)

الذي اعتبرَهُ من الفَواحِش.

٦- صَاحِبُ الكَبِيرَةِ مُؤمِنٌ عَاصٍ.

يرى الحارثُ المحاسبيّ أنّ مِنْ عَصَى مِنَ المؤمنين المُوَحِدين ولو كانتْ معصيتُه بفعلِ كبيرةٍ من الكبائرِ فإنَّهُ لا يُفَارِقُهُ وصفُ الإيمانِ، فهو مؤمنٌ وإنْ كانَ عَاصِيًا بارتِكَابِ ما نَهَاهُ اللهُ تعالى عنه، فيقولُ في مَعْرِضِ الإنكارِ على المعتزلةِ والخوارجِ: "قولُكُم إذا أَتَى كَبيرَةً فليس بمؤمنٍ، دَعوَى منكم لا بُرهَانَ لكم عليهَا، وقد قالتْ الخوارِجُ: إنّه -إنَّما أرادَ به- منْ أتى كبيرةً فهو كافرٌ، فما دَعْوَاكُم إلّا كدَعْوَاهم، أو تَرْجِعوا جميعًا إلى قولِ أهلِ الحَقِ، فتَقْطَعون بما قَطَعَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- به من عذابٍ للجَاحِدين، ومغْفِرَةٍ للتائبين، والوقوفُ عند مَنْ اسْتَثْنَىَ من الموحِدين فيما دونَ الشرْكِ[1]، وإلّا كنتم مُدَّعِنَ مُبطِلِينَ"[2]، فقد فَرَّقَ المحاسبيُّ بين ثلاثِ طوائفَ: الأولى: الجَاحِدون المشركون، وهم مُعَذَّبونَ، والثانية: التائبون المؤمنون، وهم أهلُ الرحمةِ والمغفرةِ، والثالثة: الذين استَثْنَاهُم اللهُ تعالى من الوعيد المطبق المؤمنين العُصَاة، وهؤلاء أمْرُهُم مُفَوَّضٌ إلى اللهِ تعالى، وهم تحتَ أمرِ المشيئةِ يغفرُ اللهُ لمنْ يشَاءُ منهم بفضلِه، ويعذِّبُ مَنْ يَشاءُ منهم بعدْلِهِ -عز وجل وهو العزيز الحكيم- ولا عِلْمَ لَنَا ولا وقوفَ لنَا على تَعْيِينِ مَنْ سيغفرُ له أو من يعذبُه منهم' فعلمُ ذلك لله تعالى وحدَه.

٧- وجوبُ التَوبَةِ.

يوجبُ المحاسبيُّ التوبةَ من الذنوبِ، ويرشِدُ الى تجديدِ التوبةِ كلَ يوم فيقولُ: "والتوبةُ -قبلَ ذلك- فريضةٌ، وقد فَرَضَهَا اللهُ تعالى ورسولُهُ (ﷺ) فقالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"(التحريم/٨) ومعنى نصوحًا: تركُ العَوْدِ فيما تابَ منه العبدُ الى ربِّهِ تعالى، وقالَ رسولُ اللهِ (ﷺ): ياأيها الناسُ

---

(١) - يريد ما ورد في قوله تعالى: "إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا :(النساء/ ٤٨) فقد أخبرَ تعالى أنّ الشركَ لا يُغْفَرُ، وما كان دونَهُ من الذنوبِ فهو تحتَ مَشيئَةِ اللهِ تعالى إنْ شاءَ غَفَرَ، وإنْ شاءَ لمْ يغفرْ.

(٢)- فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٨٥، وبتحقيق د/ خالد ص ١٥٥.

تُوبوا الى ربِّكم قبْلَ أنْ تَموتوا، وتَقَربوا الى اللهِ تعَالى بالعَمَلِ الصَالِحِ قبلَ أنْ تُشغَلوا"[1]، ويقولُ عن تَجديدِ التوبةِ أيضـًا: "وجَدِدْ في كلِّ يومٍ تَوبَةً"[2] فالتوبةُ واجِبَةٌ وينبغى على كلِّ مسلمٍ تجديدُها في كلِ يومٍ وليلَةٍ.

٨- زيادَةُ دلالَةِ معنَى الأوْبَةِ على التَوبَة.

نقلَ السُلمىّ رأيَ المحاسبىّ في معنى الأوآبِ عند تفسيرِ قولِ اللهِ تعالى: هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ"[ق/٣٢] قال سَهْلٌ: هو الراجِعُ بقلبِهِ من الوسوسَةِ إلى السكونِ إلى اللهِ، والحفيظُ: المحافظُ على الطاعاتِ والأوامرِ، قال ابنُ عُيَينَةَ: الأوابُ: الحفيظُ الذي لا يقومُ من مجلسٍ حتى يستغفرَ اللهَ منهُ خَيراً كانَ أو شَرّاً؛ ولِمَا يَرَى فيه من الخَلَلِ والتَقْصِيرِ، وقَالَ حَارِثُ المحاسبيُّ: الأوآبُ: الراجِعُ بقلبِهِ إلى ربِّه، والحَافِظُ قلبَه في رجوعِهِ إليه أنْ يرجِعَ منه إلى أحدٍ سِوَاه[3]. فالأوابُ له زيادَةُ دِلَالَة عندَ المحاسِبىّ شأنُ أغلبِ الصوفِيَّةِ. والأوَابُ أعلَى درجةً عندَ الحارث من التَائبِ.

٩- لا يجوزُ العفوُ عن المُشركين.

يرى الحارثُ عدمَ جوازِ العفوِ والمغفرةِ عن المشركين والكُفَّارِ مَا لَمْ يتوبوا عن كُفْرِهم ويرجِعوا الى الإيمانِ، فإنْ آمنوا فقد دَخَلوا في حَيِّزِ جوازِ العفوِ عنهم؛ مستدلاً على هذا بظاهر القران الكريم بقول الله تعالى: إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمـًا

-(١) رسالة المسترشدين ص ١١٢، وقد تعقب الشيخ أبو غدّة المحاسبى في استدلاله بهذا الحديث بأنه ليس سديداً في الاستدلال على وجوب التوبة فقال: "هذا جزء من حديث طويل أخرجه ابن ماجة في سننه من حديث سيدنا جابر ولفظُهُ: "ياأيها الناسُ تُوبوا الى اللهِ قبل أن تَموتوا، وبادِروا بالأعمالِ الصالِحَة قبلَ أنْ تُشغَلوا.... : وقالَ إنَ في سنده مَنْ يوصفُ بالضعف بالاتفاق، ثم قال: كان الأوْلَى بالمؤلف [يريد الحارث] أنْ يستدِلَّ على أمرِ النبي ﷺ بالتوبةِ بحديثِ: "يا أَيُها الناسُ توبوا الى اللهِ؛ فإنِّى أتوبُ إليه في اليوم مائةَ مرَّةٍ". رواه الإمامُ مسلمُ في صحيحة ١٧/ ٢٤، وأحمد ٤/ ٤١٠، ٢٦٠، وصحَحَّهُ الألباني في السلسة الصحيحة ٣/ ٤٣٥ برقم: (١٤٥٢)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٤٣، والنسائي في عمل اليوم والليلة٤٤١، وفي السنن الكبرى (١٠٢٧٥)، وابن ماجة (٣٨١٦).

(٢) - رسالة المسترشدين ص ١٤٨.

(٣)- تفسير السلمى ٢/ ٢٦٨.

عَظِيمًا"(النساء/٤٨)، فأخبرَ [اللهُ تعالى] أَنَّهُ لا مَشيئَةَ لهُ في المغْفرةِ لأحَدٍ من المشركين، وله المشيئةُ فيما دونَ الشِركِ بالمغفرةِ عمَّنْ يَشاءُ"(١) فالحارثُ يرى أَنَّهُ لا يجوزُ أنْ يغْفرَ اللهُ تعالى للكُفَّارِ؛ لأنَ اللهَ تعالى قدْ أخبرَ بذلك في كتابِه الكريم، بخلافِ حال عُصَاةِ المؤمنين مِمَّن تحَقَّقَ فيهم أصلُ الإيمانِ بالله وحدَه، فوجودُ الإيمانِ أو عدمُه هو مناطُ التفريقِ بين الفريقين في جوازِ العفوِ وعدمِه. ولذا يقولُ أيضـًا: "لأنَّ اللهَ جلَّ ذِكْرُهُ لا يغفِرُ لمنْ مَاتَ مُصِرًّا على الشِركِ، ويغْفرُ لمنْ يشاءُ مِمَّنْ مَاتَ مُصِرّاً على الذنوبِ مع التَوحِيدِ"(٢) وهذا ما ذهبَ الحارثُ إليه وَفْقَ ظاهِرِ النَصِّ القُرانِيّ الظاهِرِ الدلالَة.

١٠- **تَخْصِيصُ عُمُومِ مَشيئَةِ المَغْفِرَة**

ويؤكد الحارث هذا المعنى السابق -من أنه لا يجوز العفو عن الكفار- في موضع آخر عند حديثه عن تخصيص عموم مشيئة المغفرة فيقول: "وكذلك قوله عز وجل: "يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ"(آل عمران/ ١٣٩) عموم [أي عام] لم يَخُصَّ قومٍ بأعيانهم، فقد عرفنا من يشاء مغفرته [لهم] بعد عموم هذا الخبر بأخبارٍ خاصّةٍ، ولولا الأخبارُ الخاصةُ بعد ذلك لكان علينا أنْ نقفَ حتى نعلم من يشاء عذابَه، فلما أخبرنا: أنه لا يغفر لمن أشرك؛ قطعنا بذلك، و[قد] أخبرنا: أنه تعالى يغفر لمن تاب، فقال تعالى: "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى"(طه/٨٢) وقال تعالى: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(آل عمران/١٢٩)؛ فقطعنا بذلك، وعلِمنا: أنه تعالى قد شاء عذابَ الكافرين، وشاء مغفرة التائبين، ولما أرجى مغفرتَه من يشاء من المُصِرِّين(٣) وَقَفْنَا ولم نقطع [بتعيين أحدهم]، وعلمنا أنه يشاء أن يغفر لبعضهم، وأنه يعذب بعضَهم، إذ أخبر تعالى أنه سيعذبهم إلا من شاء مغفرته [له] منهم فجعل مشيئته في مغفرته لهم خصوصـًا [أي مُخَصِّصَةً] والآخرون معذبون بقوله: أعذبُ وأغفرُ لمن شئتُ منهم، فعَلِمْنَا: من شاءَ اللهُ تعالى من خلقِهِ -بعدَ قولِه تعالى:(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)- أنْ يعذبَهم، وأنْ يغفرَ لهم، ولم نعلمْ: مَنْ يغفرُ لهم

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٧٣، وبتحقيق د/ خالد ص ١٤٨.

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٧٧، وبتحقيق د/ خالد ص ١٥٠.

(٣) - يريد لما أعطى اللهُ تعالى الرجاء بالمغفرة لعباده المصرين على الذنوب من المؤمنين.

مِنَ المُصِرِّين الموحدين ولا مَنْ يُعَذِّب منهم، إلّا أنّه سيعذبُ بعضَهم، ويغفرُ لمن شاءَ منهم"[1]. وهنا نجدُ المحاسبيّ يُخَصِّصُ عمومَ الآياتِ بآياتٍ أخرَى، وعليه فإنَّ الكفارَ ليسوا داخلين في عمومِ المشيئةِ الواردِ في قوله تعالى:(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)؛ لأنَّه عامٌ مُخَصَّصٌ ومُقَيَّدٌ بالمشيئةِ فهو يقولُ أيضـًا: "ولكنَّا نقولُ: إنَّ للهِ جلَّ وعزَّ ذكرُه أخباراً خاصةً، وأخباراً عامةً، وإنْ كانَ ظاهرُ تلاوَتِها العمومُ، فهو مختلفٌ في معانِي الخُصُوصِ والعُمومِ"[2]، فهو يشيرُ إلى أنَّ بعضَ النصوصِ يكونُ مدلولُها خَاصًّا وإنْ كانت في ظاهرِ تلاوتِها عامةً، ويُعَوِّلُ على تخصيصِ العامِ في إخراجِ الكفارِ من عمومِ مشيئةِ المغفرةِ، ويخصِّصُهُ بالمؤمنين وحدَهم.

١١- **لا يجوزُ الاستِغْفَارُ للمُشركين.**

يرى الحارثُ عدمَ جوازِ الاستغفارِ للمشركين وللكُفَّارِ، فيذهبُ إلى منعِ ذلك، ويؤخذُ ذلك من كلامِهِ عندما تحدَّثَ عن قولِ اللهِ تعالى: "وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ :(الشورى/٥) مع قوله تعالى: "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ :(غافر/٧) يذهب إلى: أنّه لا نسخَ بينَ الآيتين، بلْ الوَجْهُ الصحيحُ: أنَّ هذ العمومَ الذي في الآيةِ الأولى الوارد في قوله تعالى:(لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) الذي يُوْهِمُ بظاهِرِهِ دخولَ الكفارِ في استغفارِ الملائكة لهم، من قَبِيْلِ العَامِ الذي أُرِيدَ به الخَاصَ، فقدْ خُصِّصَ ذلك العُمومُ بقوله تعالى في الآيَةِ الثانيةِ:(فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) فهذه هي التي خَصَّصَتْ عمومَ آيةِ استغفارِ الملائكةِ، وقَصَرَتْهُ على التائبين الراجِعِين عن الشركِ الى الإيمانِ بوحدانيتِهِ تعالى، فقط دون الكفار، ويرى أنَّ مَنْ قالَ بالنسخِ بين الآيتين قدْ غَفَلَ عن الفَهمِ الدَقيقِ لهما، ولهذا نجدُ الحارثَ يذهبُ الى عدمِ جوازِ الاستغفارِ للكفارِ مَا لَم يتوبوا عن كُفرِهم ويرجعوا عنه الى الإيمانِ، ويستدل على ذلم القول بالدليل العقلى في فهم الآيات فيقول: "لا جائز أنْ يَنْسخَ[اللهُ

(١) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٧٥، ٣٧٦، وبتحقيق د/ خالد ص ١٤٩.

(٢) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٧٢، وبتحقيق د/ خالد قال:(وإن اتفق ظاهر تلاوتها في العموم).ص ١٤٧

تعالى]الاستغفَارَ للكافرين[1]، وقد أخبر أنَّهُ تعالى قال: لا يَغْفِرُ لهم أبَداً، فيكونُ قد أمرَهُم أنْ يستغفروا للكافرين، ثم نَسَخَهُ بنَهْيِهِ لهم....، فيخالفوا[أى الملائكةُ] مَحَبَةَ مولاهُم، فيسألوهُ تعالى أنْ يغْفِرَ للكافرين مع المؤمنين، وقدْ أوجَبَ أنْ لا يغفرَ لهم أَبَدَاً"[2]، فالحارثُ يرى: أنَّه لا يجوزُ الاستغفارُ للكفارِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ أخبرَ أنَّه لا يغفرُ لهم أبَداً حتى يتوبوا من الشركِ ويرجِعوا الى التَوحِيد. والخُلاصَةُ: أنّ الحارثَ يستدل على المنع: بأنه لا يُتَصَوَّرُ عقلاً أنْ يقعَ النسخُ في تلك الآية لأنَّ النسخَ يسْتَلْزِمُ سابِقَةَ استغفارِ الملائكة لهم، مع اخبارِه تعالى بأنَّ ذلك لا يكونُ أبداً ما داموا مشركين حتى يتوبوا ويؤمنوا به وحدَه تعالى.

١٢- جوازُ العَفوِ عن بعضِ عُصَاةِ المُؤمنين.

يرى الحارثُ جوازَ العفوِ والمغفرةِ عن بعضِ المؤمنين العَاصِينَ دونَ تعيينٍ، ولو كانتْ معصيتُهم بارتكابِ الكبائرِ ما دامَ قد وُجِدَ فيهم أصلُ الإيمانِ فيقول: "أوجَبَ اللهُ تعالى[العذابَ] لآكلِ مالِ اليتيمِ، والزَانِي، والسَارقِ، وشاربِ الخمرِ، والقاتلِ، وهو يريدُ أنَّ ذلك عليهم أجمعينَ واجِبٌ، وأنّهم لهُ مُستحِقونَ، ولم يُرِدْ أنْ يعذبَهم أجمعين، ولو أرادَ أنْ يعذِّبَهم أجمعينَ: فإنْ أرادَ أنْ يعذّبَ بعضَ منْ استوجبَ فيعذِّبُهُ بعدلِهِ، ويعفوَّ عن بعضٍ مِنْ وجَبَ عليه فيعفوَ عنه بفضلِ رحمتِهِ لزلَّتِهِ يقولُ اللهُ تعالى: "إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا :(النساء/٤٨)، *ثم قالَ في بيانِ وجهِ الاستدلالِ بهذِهِ الآيةِ الكريمةِ*: "فأخبرَ [اللهُ تعالى]: أَنَّهُ لا مشيئةَ له في مغفرةِ أحدٍ من المشركين، وله المشيئةُ فيما دونَ الشركِ بالمغفرةِ عمَّن يشاءُ منهم، فأخبرَ تعالى أَنَّهُ لم يرِدْ أن يعذبَهم كلَهم، وأَنَّهُ يغفرُ لبعضٍ من يشاءُ منهم، وأخبرَّ أنهم جميعًا مستحقونَ للعذابِ، وأنَّ لهُ المشيئةَ في بعضٍ من استحقَّ منهم العذابَ الذي وجبَ عليهم في حُكْمِهِ تعالى، ولم يُعْلِمْنَا من يغفرُ له؛ فقطَعَنا بما قَطَع، وأيِسْنَا من عفوِهِ عمَّن أيأَسَنَا منهم، من المغفرةِ للمشركين، وأوْقَفَنَا [على] ما أوقفَ من عذابِ المستحقين من المؤمنين إلّا أنَا نعلمُ أَنَّهُ سيعذبُ بعضَهم_ولا

(١) – يريد أنه لا يصح القول بالنسخ لانه يستلزم:أن يكون قد ثبت الاستغفار لهم، ثم نسخ بعد ذلك.

(٢) – فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٥٩، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٥.

يكذب قوله_ لأَنَّهُ أخبَرَ: أنّه يعذِّبُ، وأنَّ له مَشيئةً فيمن يشاءُ منهم أنْ يغفرَ له، فكانَ ما أخبرَ اللهُ جلَّ وعزَّ بهِ منْ عذابِ الموحدين خُصوصَـًا لا عُمومـًا؛ إذْ أخبرَ: أنّهُ يغفرُ لمن يشاءُ منهم، وأَنَّ خبرَه: أنَّهم مستوجِبونَ عُمومـًا"[1]، وإنْ أخبرَ أنَّهُ لهُ تعالى المشيئةُ فيُمَكِّنُ مشيئتَهُ فيمَنْ يستوجبُ العذابَ منهم"[2].

فالحارثُ يرى أنّهُ يجوزُ أنْ يغفرَ اللهُ تعالى لبعضِ عصاةِ المؤمنين من أصحابِ الكبائرِ،لكن ذلك العفوَ مقيدٌ بالمشيئةِ وليسَ عامـًا يشملُ كلَ العصاةِ، بل هو خاصٌ، ولا يجوزُ قياسُ الكفارِ المشركين على عصاةِ المؤمنين في جوازِ العفوِ عنهم، فهناكَ فرقٌ كبيرٌ وبونٌ شاسعٌ بين الفريقين، ثم يعودُ الحارثُ فيؤكدُ هذا المعني بقوله: "إنّمَا أرادَ [اللهُ تعالى]أنْ يعذِّبَ على الكبائرِ منْ لم يَشَأْ أن يغفرَ له؛ لأنّهُ قد أخبرَ بعدَ خبرِهِ عن عذابِهم: أنّه تعالى يغفرُ لمن يشاءُ أنْ يغفرَ له منهم، ولم يُعْلِمْنَا بهم، فمنْ استثناهُ فهو لا محالَةَ مغفورٌ له، وإنْ كان الاستثناءُ لم يقعْ على أحدٍ بعينِهِ، إلّا أنّنَا نعلمْ: أنَّ بعضَهم يُغْفَرُ لهم كمَا قالَ، فعلينَا أنْ نقْطَعَ بِما بَيَّنَهُ، ونُوقِفُ ما أوْقَفَهُ، وهو عالمٌ بمن يشاءُ مغفرتَه ومن يشاءُ عذابَه "[3]

١٣- القولُ بعدمِ نَجَاةِ فِرعَون.

يختارُ الحارثُ المحاسبِيّ القولَ بعدمِ نجاةِ فرعونَ في الدُنيا والآخِرةِ وفى ذلك الرأيِ يقولُ المحاسبيُّ: ولا جَائز.... أنْ يُخبِرَ تعالى عن شَيءٍ أنَه لا يَفْعَلُهُ، ثم يخبرُ أنّهُ يفعلُهُ كمَا قالَ للنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- : "وخَاتَمَ النَبِيِّينَ :(الأحزاب/ ٤١)، فأخْبَرَ أنّهُ آخِرُ منْ يُبْعَثُ، ثمَّ يخبرُ[بعد هذا] أنّه يبعثُ بعدَه نبيّـًا....، فإذَا عَرَفْتَ ذلك واستيقَنتَهُ فتَلوتَ آيَةً....مثلَ قولِه تعَالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ"(هود/٩٨) [عَرَفْتَ] أَنَّهُ تعَالى لمْ يُرِدْ بِهِ نَجَاةً من الغَرَقِ، ولا من العذابِ في الآخرَةِ"[4]، فهنا نجدُ الحارثَ المحاسبيَّ ينصُّ على عدمِ نَجَاةِ فرعونَ من الغَرقِ في الدنيا وكذا عدمُ نجاتِه منَ

(١) - يريد الحارث التفريق بين العام والخاص هنا، فالإخبار بأنهم مستوجبون للعقاب هذا عام، وأما الخبر بأنه تعالى: يغفر لبعضهم، فهذا خاص بمن يشاء العفو عنه منهم، فهو مقيد بالمشيئة، فمغفرة ما دون الشرك للمؤمنين مقيد بالمشيئة.

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٧٣، وبتحقيق د/ خالد ص ١٤٨.

(٣) -فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٩٣، وبتحقيق د/ خالد ص ١٦٠.

(٤)- فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٣٦، وبتحقيق د/ خالد ص ص ١٢٠.

العذابِ في الآخِرةِ، مُستَنِداً في ذلك إلى استِحَالَةِ وقوعِ النسخِ في أخبارِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ أخبرَ أنّ فرعونَ في النارِ بقولِه تعالى "يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ"، ثم قال مقعِّبًا: "وقد تأوَّلَ قومٌ أنَّ اللهَ جلَّ ذكرُهُ عَنَى: أنْ ينجِيَهُ ببدَنِهِ من النارِ، إذا آمَنَ عندَ الغَرَقِ ثمَّ كان كلامُه في الردِّ على المخالفين شَديداً، حتى صَرَحَ بأنَّ قولَهُم وتأويلَهم (هذا كَذِبٌ على اللهِ).

١٤- **الإيمان يَزِيدُ ويُنْقُص.**

عندما تحدثَ المحاسبيُّ عن التَوَكُّلِ أشارَ سريعًا الى رأيِهِ في مسألةِ: زيادةِ الإيمانِ ونقصِه فقالَ: "التوَكُّلُ محضُ الإيمانِ لأنَّه فَريضَةٌ على العبادِ، ولا يكونُ الإيمانُ[كامِلاً] إلا بتوكُّلٍ، والتَوكلُ يزيدُ وينقصُ كمَا أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، والنَاسُ يتفَاضَلون في التَوكُّلِ واليقينِ على قدْرِ الإيمانِ"(١) ومن الثابتِ أنهُ كان لهُ كلامٌ في الإيمانِ، فقد رُوِيَ عنه أنَّهُ "تَكَلَّمَ في مسألَةِ الإيمانِ"(٢)، ونُلاحظُ هنا تأكيدَ الحارثِ المحاسبِّي على زيادَةِ الإيمانِ ونقصِه حيثُ جعلَه أصْلاً يقيسُ عليه التوكل، وأعَادَ الحُكمَ بالزيادَةِ والنقصانِ مع بعد ذكر الإيمانِ صَرِيحًا؛ تأكيداً لمذهبِه وتوضيحًا.

١٥- **صِحَّةُ إيمَانِ المُقَلِّدِ الجَازِم.**

تعرضَ المتكلمونَ عندَ بحثِهِم لمسألةِ الإيمانِ عَامَّةً الى فَرْعٍ نَتجَ عنَها وهو مسألةُ: حُكمِ إيمانِ المقَلِّدِ ومدَى اختلافِهِم فِيهِ، وقدْ بَدأَ البغدادي حديثَهُ بالإشارةِ إلى قولِ البعضِ بكفرِ مَنْ اعتقدَ الحقَ تقليداً من غيرِ دليلٍ، وأعتقدَ مع ذلك في نفسِهِ جوازَ أنْ يَرِدَ عليه من الشُبَهِ ما يُفسِدُ عليه عَقيدَتَه، فهذا كافِرٌ عندَهم.

ولكنَّه ذكرَ الخلافَ في المقلِّد الذي اعتقَدَ الحقَ، ولم يعرفْ دليلَه، واعتقَدَ -مع ذلك- أنَّه ليس في الشُبَه ما يفسدُ عليه اعتقادَه، فقالَ البغداديُّ مُبينًا الخِلافَ في حكمِ هذا المقلِّدِ الثَابتِ على عقيدتِهِ غير المُتأثرِ بالشُبهَات: "وهو الذي اختلفَ فيه أصحابُنَا: فمنهم مَنْ قالَ: هو مؤمنٌ، وحكمُ الإسلامِ له لازمٌ، وهو مُطيعٌ للهِ تعالى باعتقادِه، وسائرِ طاعاتِهِ، وإنْ كانَ عاصِيًا بتركِ النظرِ والاستدلالِ

(١) -أدب النفوس للحارث المحاسبى تحقيق/ مجدى فتحى السيد ص ١٨٥ فقرة ٢٨٥-دار السلام للطباعة والنشر بالقاهرة ط(١)١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

(٢) - سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢/ ١١٣.

المُؤدِي إلى معرفةِ أدلّةِ قواعدِ الدينِ، وإنْ ماتَ على ذلك رَجَونَا له الشَفَاعَةَ، وغُفرانَ معصيتِه برحمَةِ اللهِ تعالى، وإنْ عُوقِب على معصيتِه لم يكنْ عذابُه مُؤبَّداً، وصارتْ عاقبةُ أمرِهِ إلى الجنَّةِ بحَمدِ اللهِ تعالى ومَنِّهِ. هذا قولُ الشافعي، ومالكٍ، والأوزاعيّ، وأحمدِ بنِ حنبل، وأهلِ الظاهِرِ، وبه قالَ المتقدمون من متكلمِي أهلِ الحديثِ: كعبدِ اللهِ بنِ سعيد، والحارثِ المحاسبيّ،....، وأبى سعيدِ القَلانِسِيّ، وبه نَقولُ"[1]، ومن المتكلمين منْ قالَ: إنَّه قدْ خرجَ باعتقادِهِ هذا عن الكفرِ، وإنْ كان لا يستحقُ اسمَ الإيمانِ؛ ولذا فلم يُسَمِّهِ مؤمنًا كالإمامِ الأشعري.[2]

فقد نَصَّ البغداديُّ هنا على أنَّ المدرسةَ الكلابيَّةَ بأعلامِها الثلاثة الذين وصَفَهم بأنَّهُم المتقدمون من متكلمِي أهلِ الحديثِ، وأنّهم يذهبونَ إلى: أنَّ المُقَلِّدَ الجَازِمَ الخَالِي من الشكِّ والتَأَثُّرِ بالشُبُهاتِ مؤمنٌ، ولكنّه يُعْتَبَرُ عَاصِيًا؛ بتركِهِ النظرَ المؤدِي إلى اليقينِ، لكن مَئآله إلى الجنّةِ بفضلِ اللهِ تعالى وجودِهِ وكرمِهِ، وقد اختارَ البغداديُّ هذا المذهبَ؛ لكونِهِ قولَ الفقهاءِ، وأهلِ الحديثِ، والمدرسةِ الكُلَّابِيَّةِ بأعلامِها الثَلاثَة.

وقالَ أبو المعين النسفيُّ(ت٥٠٨هـ) في ذلك: "المُقَلِّدُ الذي لا دليلُ معه مؤمنٌ، وحُكمُ الإسلامِ له لازمٌ، وهو مُطيعٌ للهِ تعالى باعتقادِهِ وسائرِ طاعَاتِهِ، وإنْ كانَ عاصِيًا بتركِ النظرِ والاستدلالِ، وحكمُهُ كحكمِ غيرِه من فُسَّاق أهلِ الملَّةِ من جوازِ مغفرتِه وتعذيبِهِ بقَدْرِ ذنبِهِ، وعاقبَةُ أمرِهِ الى الجنَّةِ لا مَحَالَةَ، وهذا القولُ محكيٌ عن: أبي حنيفةَ -رحمه الله تعالى- والثوريّ، ومالكٍ، والأوزاعِيّ، والشافعيّ، وأحمدِ بنِ حنبل، وأهلِ الظاهرِ -رحمهم الله تعالى- ومِنَ المتكلمين [مَرْوِيٌّ] عن: عبدِ اللهِ بنِ سعيد القَطَّان، والحَارثِ بنِ أسدِ الله، وعبدِ العزيز بن يحي المَكيِّ".[3] فقد حشد النسفيُّ الماتريديُّ عدداً مِمَّنْ قالَ بهذا المذهبِ كمُسَوِّغٍ لترجيحِهِ.

---

(١)- أصول الدين للبغدادي ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٢)- أصول الدين للبغدادي ص ٢٥٥.

(٣)- تبصرة الأدلة في أصول الدين لأبى المعين ميمون بن محمد النسفى (ت ٥٠٨هـ) تحقيق د/ حسين آتاى ص٤٢. نشر رئاسة الشئون الدينية للجمهورية التركية رقم: (٣٩٣) سلسلة كتب المصادر رقم(٢٣) انقرة تركيا سنة ١٩٩٣م.

١٦- الإيمانُ مَخْلوقٌ أم غيرُ مَخْلوق؟

بعدَ أنْ تحدثَ البَيَاضِيُّ الحنفيُّ عن خلقِ العبدِ لأفعالِهِ، وذكرَ أنّه يؤخذُ من كلامِ الإمامِ أحمدِ بنِ حنبلٍ عِدَّةُ إشاراتٍ منها: أنّ فعلَ الفاعلِ المُختارِ مَسْبوقٌ بالقَصْدِ والاختيار غالبًا، وأنَّ الكَاسِبَ يوصَفُ بالفاعلِ على الحقيقةِ؛ لأنّ الفَاعِلَ يُطلقُ على معنيين -هما الخَالِق، والكَاسِب- فيطلقُ الفاعلُ بمعنى: الخالقِ الذي صدَرَ منه الفعلُ إيجَاداً وخَلْقًا، ويُطلَقُ الفاعلُ ويُرادُ به: الكاسبُ الذي صَدَرَ منه الفعلُ كَسْبًا.

وأنَّ الإيمانَ بالمعنى الحاصلِ بالمصدرِ مخلوقٌ عندَ بعضِ العُلماءِ، بينما فَرَّقَ بعضُهم بين اطلاقَين للإيمانِ، لأنّ الإيمانَ يُطلقُ على إطلاقين: فيطلقُ بمعنى: *الهداية والتوفيق*، فهو بهذا المعنى غيرُ مَخْلوقٍ، ويُطلَقُ بمعنى: الإقرارِ والأخذِ بالأسبابِ والاهتداءِ فهو بهذا المعنى مَخْلوقٌ، ثم قالَ فيما يرويهِ عن رأيِ الحارثِ المحاسبيِّ في ذلك: "اخْتُلِفَ: هلْ الإيمانُ مخلوقٌ أم لا؟ فقالَ بالأول:[وهو أنَّه مَخْلوقٌ] الحارثُ المحاسبيُّ، وعبدُ اللهِ بنُ سعيدٍ، وجَمَاعَةٌ، وقال بالثانى: [وهو أنَّه غيرُ مخلوقٍ] أحمدُ بنُ حنبل وجماعةٌ، والخِلاَفُ لَفْظِيٌّ"(١)، فالحارثُ المحاسبِيُّ مِمَّنْ اختاروا: أنَّ الإيمانَ مخلوقٌ، ويتَّضِحُ تعقيبُ الشيخِ بقوله: (والخِلاَفُ لَفْظِيٌّ)من خلال ما سبق ذكرُه من إطلاقِ الإيمانِ بإطلاقين: فمَنْ أرادَ به: الهِدَايةَ والمعنى المصدَرِيّ للإيمان، قال: الإيمانُ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنّهُ فَعْلُ اللهِ تعالى -ومنهم المحاسبى- ومَنْ أطلقَ الإيمانَ على: الإقرارِ والأخْذِ بالأسبابِ، فالإيمانُ عنده مخلوقٌ بكسبِ العبدِ، فالخِلافُ كمَا رأيتَ راجعٌ إلى اطلاقِ اللفظِ والمعنى المُرَادِ به؛ لذا عُدَّ لفْظِيًّا -كما قال البياضى.

١٧- الميثاق حق.

يشيرُ الحارثُ الى أنَّ الميثاقَ الذي أخذَهُ اللهُ تعالى على بَنِى آدمَ في عَالَمِ الذَرَّ قَبلَ ولادتِهِم من آبائهم حقٌ، بأنَّ اللهَ تعالى ربهُّم وخَالِقُهم، وأنَّه واحِدٌ لا شريكَ له، وأنَّ ذلك الميثاقَ مِمَا ينبَغِى الإيمانُ

(١) -إشارات المرام من عبارات الإمام للبياضى الحنفى تحقيق المزيدى ص ٢١٩، وبتحقيق د/ يوسف عبد الرازق ص ٢٥٣.

به؛ لورودِه في القرآنِ الكريم حيثُ يشيرُ إليهِ قولُه تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"(الأعراف/١٧٢)، فنجدُه يشيرُ إليه بقولِه: "فاستَخَصَّ [اللهُ تعالى] آدَمَ وذرِّيتَهُ فأخَذَ منهم المِيثَاقَ بِمَا فَطَرَهُم عليهِ مِنَ العُقولِ"(١)، فقدْ سَبَقَ الحارثُ المحاسِبيُّ مَنْ جاءَ بعدَه منَ العُلَماءِ، كالإمَامُ الطَحَاوِيُّ الذي قالَ في العقيدةِ الطحاويَّةِ: "والميثاقُ الذي أخَذَهُ اللهُ تعالى من آدَمَ وذريتِهِ حقٌّ :وفَصَّلَهُ أيضًا الشارِحُ بعد ذِكرِ هذه الآيةِ كدليلٍ عليه بقولِهِ: يُخبِرُ اللهُ سبحانَه أنَّه استَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بنى آدمَ من أصْلَابِهم شاهِدِينَ على أنفسِهم: أنَّ اللهَ تعالى ربهُم ومليكُهم وأنَّه لاَ إِلَهَ إِلَّا هَو"(٢). وبهذا يتَّضِحُ سَبْقُ الحارثِ المحاسبِيّ في الإشَارةِ الى تلك مسألَة المِيثَاق.

المبحث الثالث: آرَاؤهُ في مسَائل عَامَّةٍ مُتَفرِّقَة

١- التحذيرُ من الجَدَلِ في الدين والقُرآن.

يشيرُ الحارثُ المحاسبيُّ الى وجوبِ الحَذَرِ من الجدلِ في الدينِ والمِرَآءِ في القرآنِ الكريمِ فيقولُ: "احذَرْ ياأخى المِراءَ في القرآن، والجدلَ في الدينِ، والكلامَ في التحديد"(٣) وقد علقَ الشيخُ أبو غُدَّةَ -رحمه الله تعالى- على قولِ الحارثِ هذا تعليقًا وافِيًا بقولِه: "أى الشَكَ في كونِهِ كلامَ اللهِ تعالى، أو المرادُ: [حَذَرُ] الخَوضَ فيه بأنَّهُ مُحْدَثٌ أو قديمٌ، أو المرادُ: المجَادَلَةُ في الآياتِ المتشابِهَةِ، أو المُرادُ: بالمِرَاءِ في القرآن: التَدَارؤ فيه وهو: أنْ يَرُومَ تكذيبَ القرآنِ بالقرآنِ؛ ليدفعَ بعضَه ببعضٍ فيَتَطَرَقَ إليه قدحٌ أو طعنٌ، ومِنْ حق النَاظِرِ في القرآنِ الكريمِ أنْ يجتهدَ في التوفيقِ بين الآياتِ والجمعِ بين المختلفاتِ ما أمْكَنَهُ؛ فإنَّ القرآن يصدقُ بعضُه بعضًا، فإنْ أُشكِلَ عليه شئٌ، ولم يتيَسَرْ لهُ التوفيقُ فليعتَقِدْ أنَّه مِن سوءِ فَهمِه"(٤)، فالجَدَلُ والمِرَاءُ في الدينِ منْ المنكراتِ التي حَذِرَهَا السَلَفُ الصالحُ

(١) - فهم القران للحارث المحاسبى (ت ١٤٣ه): تحقيق د/ القوتلى ص ١٦٤.

(٢) - شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية للطحاوى شرح على بن محمد بن أبي العز الحنفى (ت ٧٩٢هـ) تحقيق د/ أحمد محمد شاكر ص ١٨٥، ١٨٦ - مكتبة الرياض الحديثة بالسعودية.

(٣) - رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى ص ٧٧، ٧٨، ٧٩.

(٤) - السابق حاشية المحقق ص ٧٧.

على أنفسهم، وحَذَّرُوا منها؛ لِشِدَّةِ خطرِهَا على الدينِ، وعلى وحْدَةِ الأمَّة، فقد قال النبي (ﷺ): "ما ضَلَّ قومٌ بعد هدى إلا اوتوا الجَدل".

٢- المُتَشَابِه لا يعلَمُهُ إلَّا اللهُ.

اشتملَ القرآنُ الكريمُ في آياتِهِ وخِطابِهِ لنا على نوعين من الآياتِ: مُحْكَم، ومُتَشَابِه، وقد اقتضتْ ذلكِ حِكمةُ اللهِ العليِّ الحكيمِ، وقد أورَدَ البغداديُّ الخِلافَ في المُرادِ من المُحْكَم، والمُتَشَابِه، ثمَ ردَّ على الضَعيفِ منها، وذكرَ اختلافَ الأشاعرةِ في أدراكِ المتشابِهِ، وذكرَ رأيَ أعلامِ المدرسةِ الكُلَّابيَّة: ابن كُلَّاب، والمحاسبيّ، والقلانسي في ذلك فيقول البغدادي: "واختلَفَ أصحَابُنا في إدراكِ علمِ تأويلِ الآياتِ المتشابِهَةِ: فذهبَ الحَارِثُ المُحَاسبيُّ، وعبدُ الله بن سعيد، والقَلانِسيُّ إلى: أنَّ *المتشابِهَ هو: الذي لا يعلمُ تأويلَه إلا اللهُ تعالى*، وقالوا: منها حروفُ الهجاءِ في أوائلِ السورِ، وهذا قولُ مالكٍ، والشافعيّ، وأكثرِ الأمةِ، ومَنْ قالَ بِهَذا وقَفَ على قوله تعالى: "ومَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إلَّا اللهُ"[آل عمران/٧]، ثم ابتدأ بقولِه تعالى: "والرَاسِخونَ في العِلْمِ يَقولَونَ آمَنّا بِهِ كَلٌ مِنْ عِنْد رَبِنَا"[آل عمران/٧] وكانَ شيخُنَا أبو الحسنِ الأشعري يقولُ: لابدَّ من أنْ يكونَ في كلِ عصرٍ من العلماءِ مَنْ يعلمُ تأويلَ ما تَشَابَه مِن القُرآنِ، وإليه ذهبَ المعتزلةُ، ووقفوا من الآيةِ على قولِهِ تعالى: "والرَاسِخونَ في العِلْمِ :*والوَقْفُ الأوَلُ أصَحُّ عِندَنا*، وبِهِ قالَ ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وفي مصحفِ أبَيّ: "ومَا يَعلَم تَأوِيلَه إلا اللهُ ويَقُولُ والرَاسِخون في العِلْم آمَنّا به"....، وفي مصحفِ ابنِ مسعودٍ: "ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تِأوِيله وإنْ تَأوِيلُه إلَّا عِندَ اللهِ :ثم قال: "والرَاسِخونَ في العِلْمِ"برفعِ الراسخين دونَ كَسْرِهِ[(١)]، وكلُ ذلك تأكيدٌ للوقْفِ الذي اخترنَاه، وهو أيضًا اختِيارُ أكثرِ النحويين"[(٢)].

نلاحظ هنا أنَّ البغداديّ: يذكرُ رأيَ المدرسةِ الكلابيةِ مُصَرِّحًا بأسمَائِهم الثلاثة، ثم يشيرُ إلى أنَّ

(١) – يريد بالرفع دون الجر، فهو على الرفع مقطوعٌ عمَّا سبَقَه، وليس مشارِكًا له في الحُكم، ولو أرادَ مشاركتَهم في معرفة تأويل المتشابه لكان بالجر كذا: (والراسخين)؛ لأنَّه سيكونُ معطوفًا على لفظِ الجلالَة (اللهِ) المجرور بعند، ولكانَ هكذا: (وإنْ تأويلُه إلا عند اللهِ والراسخين في العلم)،أي: عند الله وعند الراسخين في العلم أيضًا، لكنَّه جاءَ برفعِ الراسخين هكذا: (والراسخون): ليفيد الاستئناف، وأنهم إنما يؤمنون به دون علم بتأويله، لأن تأويله عند الله تعالى وحده دونهم.

(٢)– أصول الدين للبغدادي ص٢٢٢، ٢٢٣.

الإمامَ مالِكًا، والشَافِعيّ قالَا بهذا الرأيِ، وأنَّ هذا القولَ عليه أكثرُ الأُمَّةِ، ثم ختَمَ كلامَه ببيانِ مَحَلِّ الوَقْفِ منَ الآيةِ الكريمةِ، وهو قولُه تعالى: "ومَا يَعلَم تَأوِيلَه إلا اللهُ"، وهو ما اختارَه ورَجَّحَهُ وانتصَرَ له بِعِدَّةِ طرقٍ منها قولُه: "وهو اختيارُ أكْثَرِ النحويين"(١) كما أنَّ البغداديّ يختارُ رأيَ الحارثِ المحاسبيّ، وصاحبيه، ويُرَجِّحُهُ على رأيِ شيخِهِ أبي الحسنِ الأشعري ، بلْ وينتصرُ له بشَتَى الأدلَّةِ، والقول بأن المتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى هو ما رجَّحَه المحاسبيُّ بعد عرضَ الآراء.(٢)

٣- العقائد لا يجوز فيها النسخ.

يشيرُ الحارثُ الى رفضِهِ التامِ للنسخِ في صفاتِ اللهِ تعالى، أى أنَّ المحاسبيّ يرَى أنَّ العقائدَ لا يدْخُلُهَا النسخُ، فلا نسخَ في صفاتِ اللهِ تعالى، ولا في أسمَائِهِ جلَّ وعَلا، وفى ذلك يقول الحارثُ: "اعلم أنَّ النسخَ لا يجوزُ في معنَيين، ومَنْ دَانَ بأنّهُ يجوزُ النسخُ فيهمَا فَقَدْ كَفَرَ، لا يَحِلُ لأحدٍ أنْ يعتقدَ أنّ مَدْحَ اللهِ جلَّ ثناؤهُ، ولا صفاتِهِ، ولا أسماءَهُ يجوزُ أنْ يُنسَخَ جَلَّ وعَزَّ، ووصفَ نفسَهُ بصفاتِهِ الكامِلةَ وامتدحَ نفسَه بِمِدَحِهِ(٣) الطاهرةِ، وبأسمائِهِ الحُسْنَى، فمَنْ أجَازَ النَسْخَ فيها [فقد] أجازَ أنْ يُبَدِّلَ أسماءَه الحسنى، فيبدِّلَها قَبيحةً سَوْأَى(٤)، و[يُبَدِّل] صفاتِه الكامِلَةَ العَلِيَّةَ، فتكون دنيَّةً ناقصَةً، ومِدْحَهُ الطاهرةَ،

(١) – أصول الدين للبغدادي ص٢٢٣. راجع في احتجاج المتكلمين بالأدلة اللغوية بحث بعنوان: (الدَلِيلُ اللُّغَوِيُّ عِندَ الـمُتَكَلِمِينَ دِراسَة نَظَرِيَّة وتَطْبِيقِيَّة) أ.د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجانى موسي وهو بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر ببنى سويف– العدد (٥) سنة ٢٠١٣/ ١٤٣٤هـ..

(٢) – راجع فهم القران للحارث في القسم الثالث :المحكم والمتشابه– تحقيق د/ قوتلى ص ٣٢٨: ٣٣١. وقال : سئل مالك ابن أنس عن قوله تعالى: "ومَا يَعلَم تَأوِيلَه إلا اللهُ :الآية: أيعلم تأويلَه الراشخون في العلم؟ قال: لا، وإنما قال ومَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إلَّا اللهُ :ثم أخبر : "والرَاسِخونَ في العِلْمِ يَقولَونَ آمَنّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْد رَبنَا :وليس يعلمون تأويله والآية التي بعدها أشد عندي [أى عند المحاسبى وهى] قوله تعالى: "رَبَنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا"، قال مالكٌ: الراسخون في العلم: هم العاملون بما علموا المتبعون له :وذِكْرُ اسم الإمام مالك مرةً ثانية دليلٌ على أنَّ المرادَ بياءِ المتكلمِ في عبارة: (أَشَدُّ عندى) فهى من كلام المحاسبى لا كلام الامام مالك. أ.هـ.–فهم القران قوتلى ص ٣٣٠ بتحقيق د/ خالد ص ١١٦.

(٣) –جمع مِدْحَة، أى: بمدائح متعددة طاهرة زكية.

(٤) –كلمة سوأى بالهمزة المفتوحة بعد الواو، وبعدها ألف مقصورة، هذه الكلمة مؤنث سوء بوزن: ليلى.

فتكونُ مَذمومَةً دَنِيَّةً -جلَّ وتعَالى اللهُ عن ذلكَ عُلواً كبيراً"[1]، فقد نصَّ المحاسبيّ على أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى الحسنى، وصفاتِهِ العُلَي، ولا يَدْخُلُهَا النسخُ، بل تَأَمَّلْ تعبيرَه: (لا يجوزُ) تجدهُ ينفى الجَوازَ، ومَنْعُ الجوازِ أبلغُ من الوقوعِ؛ لأنَّ الوقوعَ فَرْعُ الإمْكَانِ أو الجَوازِ، فلو لم يكنْ الشيءُ جَائزاً أو مُمْكِنًا لمَا وَقَعَ، فهو يمنعُ هنا مُجَرَّدَ الجوازِ العقليّ، وهذا ما دفعَ د/ القوتلى لأنْ يقول: "الحارثُ يرفضُ رفضًا عقليّاً كلاميّاً جوازَ النسخِ في صفاتِ اللهِ تعالى وأخْبَارِه، غيرَ أنَّ الرفضَ لا يشْمَلُ لدَى الحارثِ النَسخَ في الأحْكَام".[2] فقد نبَّهَ على التفريق بين النسخِ في العقائدِ وفى الأحكامِ الفقهيَّة.

٤- **الأخْبَارُ لا يَجوزُ فيها النَسْخُ.**

يشيرُ الحارثُ الى منعِ جوازِ النسخِ في الأخبارِ الإلَهِيَّةِ -كما منعَ النسخَ في صفاتِ اللهِ وأسمَائِهِ تعالى- فيقولُ: "ولا يجوزُ النسخُ في أَخْبَارِهِ -تعالى- عَمَّا كانَ ويكونُ؛ فيكونُ بذلك [التجويزُ] مُنْصَرِفًا من الصدقِ الى الكذبِ، ومِنَ الحقِّ إلى الهَزْلِ واللَّعِبِ، وإنَّمَا [ينسخُ] أَخْبَارَهُ الكَذَّابُ أو المُخْبِرُ بالظَّنِّ فيرجعُ عن قولِه إلى أنْ يُكَذِّبَ نفسَهُ، ويُبطِلَ قولَهُ، وذلك كقولِ القَائلِ: رأيتُ كذا، وسمعتُ كذا، ثم يقولُ بعدَ ذلك: لم يكنْ ما أخبرتُ أنِّى رأيتُهُ وسَمِعتُهُ، ونجِدُ أنَّ شيئًا قد كانَ، ثم يخبرُ أنّه لا يكونُ، فيُكَذِّبُ نفسَه فيمَا أخبَرَ، ويدل [ذلك على:] أنّه أخبَرَ بمَا لم يعلمْهُ أو يُكَذِّبُ نفسَهُ؛ فيخبرُ أنَّ ما أخبرَ بهِ أنّه سيكونُ إنَّمَا قالَ مُتَعَمِداً للكذبِ أو قالَ بالظَّنِّ، وأنّهُ كانَ جَاهلاً به، ثم رَجَعَ عن ظنِّهِ، وذلك صِفَةُ الكَذَّابِ.

لا يجوزُ أنْ ينسخَ اللهُ خبرَه: أنّه خلَقَ آدمَ وأسكَنَهُ الجَنَّةَ، وأمَرَ الملائكَةَ أنْ يَسجدوا له، فَسَجَدتْ الملائكةُ كلُها إلا ابليسَ، ولا [ينسخُ] أخْبَارَه عمَّا مضَى من الرُسُل، وعمَّا كانَ من الدُهور الخَالِيَةِ مِمَّا أخبرَ أنّه كانَ، فنجدُ أنَّ ذلكَ لم يكُن، وكذلك ما أخْبَرَ عنه تعالى: بأنَّه سَيُقِيمُ القِيامَةَ وأنَّه يبعثُ مَنْ في القُبورِ وأنَّهُ يُصَيِّرُ فَريقًا في الجنةِ وفَريقًا في السَعِيرِ...، فيُخبِرُ خلافَ ذلك كلِهِ؛ لأنَّ ذلك يُوجِبُ بالخَبرِ

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٣٢.

(٢) -مقدمة تحقيق كتاب فهم القران د/ حسين القوتلى ص ١٧٤.

الثانى لزومُ الكذبِ في الخبرِ الأولِ ولزومُ البراءَة "[1] منه، فقد أكدَّ الحارثُ على أنّ النسخَ لا يقعُ في الأخبارِ؛ لما يلزمُ عنه من الكذبِ في خبرِهِ تعالى، أو التبديل، وغيره، مما لا يليقُ بذاتِهِ المقدَّسَةِ جلَّ وعَلا، واجتهدَ الحارثُ في الرَدِّ على مَنْ يرَى جوازَ ذلِك.

٥- الأمرُ بالمعروفِ والنَهْيُ عن المُنْكَر.

عندَما تحدثَ المحاسبيُّ عن الصوفيَّةِ، وبيانِ طريقَتِهم قالَ: "والأصلُ الذي بَنَوا بِهِ طريقَتَهُم: الْتِزامُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ"[2] فهذا يدلُ على لزومِهم الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ في جميعِ أحوالِهم، وأنَّ ذلك من الواجباتِ عندَهم، وإذا كانَتْ هذ طريقةُ الصَفْوَةِ من المسلمين فينبغي على منْ أرادَ الوصولَ الي منزلتِهم أنْ يسلُكَ أصولَهم، ويتبعَ طريقَتَهم في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر.

٦- الأدلة عند الحارث المحاسبى .

يرتب المحاسبيُّ الأدلةَ على النسقِ المشهورِ من: الكتابِ، والسُنّةِ، الدليلِ العقلي، وإجماعِ الأمةِ، ونجده يشيرُ إلى ثلاثة منها في سياقِ الرَدِّ على المخالفين وإلْزَامُهم بطلانَ قولِهم بقولِه: ونحنُ نسألُكم عن معنى قولِكم حتى نُقرِّرُكم بأنَّ قولَكُم خَلافَ الكتابِ والسّنَّةِ وإجماعِ الأمَّةِ"[3]، ويقول أيضًا في موضعٍ آخَرَ: وهذا الخروجُ من: الكتابِ، والسُنَّةِ، وإجمَاعِ الأوَلينَ والآخِرين"[4] فالحارث يشير صراحةً إلى ثلاثة أنواع من الأدلة إجمالاً، وإنْ كانَ الواقعُ العمليُّ عندَ المُحاسبيَّ في الاستدلالِ يتَّسِعُ لتلك الأدلةِ الثلاثةِ المذكورةِ ولغَيرِها من الأدِلَّةِ الأُخرَى المُتَعَدِّدَة، فنجده يستندُ إلى أدلةٍ متنوعة -كما سيتضح من المسائل القادمة.

٧- الاستِدْلالُ بالواقِعِ المُشَاهَد.

يستندُ الحارثُ المحاسبيُّ إلى الواقعِ المُعَايشِ للناسِ في الاستدلالِ على ما يُريدُهُ، فعندَما تحدثَ

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢)- رسالة المسترشدين ص ١٠٢.

(٣) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٨٥، وبتحقيق د/ خالد ص ١٥٥.

(٤) فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٨٩، وبتحقيق د/ خالد ص ١٥٨.

عن المرادِ بالقُرْبِ الى الإنسان من حَبْلِ الوريدِ[١] قال: "وهو دونَهُ، كرَجُلٍ يكونُ في بيتٍ في دارٍ، فجدارُ البيتِ أقربُ إلي الدارِ ممَنْ هو في البيتِ، ولو كانَ ذلِك كذلِك لكَان آخِرُ حبلِ الوريدِ أقربَ إلى قلوبِنَا مِنه، ومُحَالٌ أنْ يكونَ ما في الوريدِ أقربَ الى الجسمِ من حبلِ الوريدِ". [٢]. ومن هذا القَبيلِ قولُه في موضِعٍ آخرَ أيضًا: "وذلك موجودٌ بين العبادِ، على تَقَدُّمِ الإرادَةِ منهم فيمَا أُمِروا بِهِ أوَّلاً، ثمَّ نُهُوا عنه، وأُمِروا بغيره منْ غيرِ بَدَاءٍ ولا جَهْلٍ، وذلك أنْ يَأمُرَ الرَجُلُ غلامَه ليعملَ في أرضِهِ، وهو يريدُ أنْ يعملَ فيها وقتَ الزراعةِ، ثم يصرِفُهُ بعدَ ذلك إلى خِدمَتِهِ في منزلِهِ، وكلاهُمَا قدْ تَقَدَمَتْ بِهِ الإرادَةُ مِنْهُ"[٣] فهو هنا يستند الى الواقع المشاهد في دنيا الناس، من أعرافهم، وأجسامهم.

٨- الاستدلالُ بالضَرُوْرَةِ العَقْلِيَّة.

يستندُ الحارثُ المحاسبيُّ على الضرورةِ العقليَّةِ في الاستدلالِ على ما يريدُ، فعنْدَمَا أرادَ أنْ يُقَوِّيَ استدلالَهُ على إثباتِ العِلمِ للهِ تعالَى بالخَلْقِ والإيجَادِ، وأنَّهُ دليلٌ على العِلمِ، ثمَّ يؤكدُ ذلك بالضَرورَةِ فيقولُ: "وهذا نجدُهُ ضَرورَةً في فِطرِنَا، فلو لمْ نَرَ كِتَابًا قَطْ، لم نُحْسِنْ أنْ نكتُبَ [كِتَابًا]، ولم يَجُزْ لنَا [أي ولا يمكن لنا] أنْ نكتُبَ كِتابًا -مؤلَّفًا بمعانيَ مَفهومةٍ- بالتَخْمِينِ أبَداً، وكذلِكَ جميعُ الصِنَاعَاتِ، فمِنْ لمْ يرْهَا فيعلَمَهَا، أو تُوصَفَ له؛ فيَعلَمُهَا لم يُحسِنْ أنْ يأتِيَ بهَا أبداً. فاللهُ جَلَّ ذكرُه أَوْلَى بعِلمِ ما يُكَوِّنُه قبلَ أنْ يُكَوِّنَه"[٤]، وهذا دليلٌ على أنَّهُ يعتمدُ للاستدلالِ بالضَروراتِ العَقلِيَّةِ البَدَهِيَّةِ كأحَدِ الأنماطِ العقليَّةِ والمنَاهجِ الاستدلاليَّة.

٩- الاستدلَالُ بقياسِ الغَائبِ على الشَاهِد.

يستندُ الحارثُ المحاسبيُّ الى القياسِ في الاستدلالِ على المسائلِ العَقَدِيَّةِ، وهو بذلِك يُعْتَبَرُ المُمَهِدُ لمَنْ جاءَ بعدَه في الاستدَلالَ بقياس الغائبِ على الشاهِدِ، وإنَّ نَقَدَهُ المتأخرون من المتكلمين

(١) - عند تفسيره للقرب في قولِهِ تعالَى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"(ق/ ١٦).

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٥٤، ٣٥٥، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٢.

(٣) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٦٢، وبتحقيق د/ خالد ص ١٣٩.

(٤) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٣٨.

وعَدُوهُ منَ الأدِلةِ الظَنيَّة التي لا تفيدُ اليقينَ -كسيف الدين الآمدى (ت٦٣١هـ)- وشاهِدُ تلك الصُورةِ الأوليَّة لهذا القياسِ عند المحاسبيِّ نجدُها في قولِه: "وإنّمَا لمْ يجُزْ أنْ يُقالَ: يعلمُ اللهُ تعالى أنَّ الشيءَ قد كانَ؛ لأنّ الشيءَ لم يكنْ بعدُ فإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يجوزُ أنْ يكونَ جاهلاً به أنَّه سيكونُ، وذلك مَوْجُودٌ فِينَا، ونحنُ جُهَالٌ، وعِلْمُنا مُحْدَثٌ، قد علمنَا أنَّ كلَ إنسَانٍ ميِّتٌ، فكُلَّمَا ماتَ إنسَانٌ قُلنَا: قدْ علِمْنا أنّه مَاتَ من غيرِ أنْ نكونَ قَبلَ مَوتِهِ جاهلِينَ أنّهُ سيَموتُ، إلّا أنَّا قد يَحْدُثُ لنَا العِلمُ -منَ الرَوِيَّة وحَرَكَةِ القلبِ إذَا نظَرنَا إليهِ مَيِّتًا- بأنَّهُ ميِّتٌ -واللهُ جلَّ وعزَّ لا تَحْدُثُ فيه الحَوَادِثُ- لأننَا لم نجهلْ موتَ مَنْ مَاتَ أنَّهُ سيَكونُ، وكذلك عِلْمُنَا أنَّ النهارَ سيكونُ صَبيحَةَ لَيلتِنَا [هذه]،ثم يكونُ؛ فنعلمُ أنَّه قدْ كانَ مِن غَيرِ جهْلٍ منَّا تَقَدَمَ أنّهُ سيكونُ، فكيفَ بالقديمِ الأزليّ الذي لا يكونُ مَوتٌ ولا نَهارٌ، ولا شيءٌ إلَّا وهو يَخْلُقُهُ؟ ونحنُ لا نخْلُقُ شيئًا؟!!"[1] فالحارثُ هنا يستأنسُ بقياسِ الغائبِ على الشاهِدِ، بعدَ أنْ ساقَ الدليلَ العقليَّ على ما يريده، وأشير إلى أن الحارث المحاسبى يَعِى جيداً الفَرقَ بين الخالقِ جلَّ وعَلا وبين عبادِهِ، ويذكُرُ تلك الفروقَ ليُنَبِّهَ المُتَلَقِيَ إلى ما بين طرفَى القياسِ من الفَرقِ الكبيرِ والبونِ الشَاسِع.

١٠- **الاستِدلالُ بمُقْتَضَى اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ.**

يستندُ الحارثُ المحاسبيُّ الى العُرْفِ اللُّغَوِيِّ في استعمَالِ العَربِ للأساليبِ، ولا عَجَبَ في ذلك فهو قريبُ الزَمنِ بالعربِ الخُلَّصِ وعصورِ الاحْتِجَاجِ اللغَوِيِّ، وشَاهِدُ ذلك قوله: "والعربُ تفعلُ ذلك في مُخَاطَبَاتِهَا، يقولُ الرجلُ لآخرَ: متى تريدُ أنْ آتيكَ؟ فيقولُ: غَدَاً، فيسألُهُ في ظاهِرِ المسألةِ عن وقتِ إرادتِهِ وإنّمَا يريدُ الوقتَ الذي فيه المجيءُ، ويجيبُهُ بالوقتِ الذي يجيءُ فيه، ولو أجَابَهُ على ظاهرِ مسألتِهِ إذا قالَ: متى تريدُ أنْ أجيئَكَ؟ لقالَ: السَاعَةَ أُريدُ أنْ تَجِيئَنِى غداً، فأجابَهُ عن وقتِ المَجِيءِ، وإنَما السؤالُ في الظاهِرِ على: وقتِ الإرادَةِ، وهو يريدُ وقتَ المجيءِ، فأجابَهُ عن معنى السؤال، ولم يُجِبْهُ على ظَاهِرِ المَسْأَلَةِ"[2].

(١) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٤٠.

(٢) - فهم القران للحارث: تحقيق د/ القوتلى ص ٣٤٣.

١١- **العقلُ غريزةٌ تُدْرَكُ بها العُلومُ.**

روى العلماءُ عِدَّة رواياتٍ عن المرادِ بالعقلِ عند الحارثِ المحاسبيِّ، وتبايَنَتْ مواقفُهم من هذا المعنى عندَه، فبعضُهم يشككُ في صحةِ النقلِ عنه، أو يقولُ بارْتِضَاءِ قولِهِ، أو برفضِهِ، ومنهم من يُفسِّرُ موقفَ بعضِهم: بأنَّه رَفْضٌ لمذهبِ الحارثِ أولاً، ثم لَاحَ لهُ بعدَ ذلك قَبولُهُ(١) فقبله، وقد تَعَقَّبَهُ بعض العلماء(٢).

وإذا جئنَا لكلامِ الحارثِ نفسِه عن العقلِ وجدنَاهُ واضحًا إذْ يقولُ: "يرجعُ العلماءُ بينَهم بالتَسمِيَةِ إلى ثلاثةِ مَعانٍ: أحدُهُمَا هو معناهُ لا معنى له غيرُهُ في الحقيقةِ، والآخَرَانِ اسمَانِ له جَوزتْهُما العَربُ؛ إذْ كَانَا [أصلُهما] عنهُ فعلاً، ولا يكونانِ إلَّا بِهِ ومنْهُ....، فأمّا هو في المعنى والحقيقةِ لا غيرَ، فهو: غَرِيزَةٌ وضَعَهَا اللهُ سبحَانَهُ في أكثرِ خَلْقِهِ(٣)، لم يَطَّلِعْ عليها العبادُ بعضُهم من بعضٍ، ولا اطَّلَعوا عليهَا في أنفسِهم برؤيَةٍ أو بِحِسٍ ولا ذَوْقٍ ولا طَعْمٍ، وإنَّما عَرَّفَهم اللهُ -سبحانَهُ- إيَاهُ بالعقْلِ منهم، فبذلِك العقلِ عَرفوهُ [تعالى] وشَهِدوا عليه بالعقلِ الذي عَرَفُوهُ [تعالى] به من أنفسِهم، بمعرفَةِ مَا ينفعُهم ومَا يضُرُّهم، فَمَنْ عَرَفَ ما ينفعُه مِمَّا يضُرُّهُ في أمرِ دُنياهُ عرفَ أنَّ اللهَ تعالى قدْ مَنَّ عليهِ بالعقلِ الذي سَلَبَهُ أكثرَ أهلِ الجنونِ، وأهلِ التِيْهِ، وسلبَهَ أكثرَ الحَمْقَى الذين قَلَّتْ عقُولُهم...، فهو غَرِيزَةٌ لا يُعْلَمُ إلا بِفِعَالِهِ في القِلبِ والجَوارِحِ، لا يقدرُ أحدٌ أنْ يصِفَهُ في نفسِه ولا في غَيرِه بغَيرِ أفعَالِه ولا يَقْدِرُ أنْ يصِفهُ بجِسمٍ ولا بطولٍ ولا بعرضٍ ولا طعمٍ ولا شَمٍّ ولا مِجَسَّةٍ ولا لونٍ، ولا يُعرَفُ إلَّا بأفعَالِه"،[ثُمَّ يَرُدُّ الحارثُ القولَ بأنَّه:

---

(١) - انظر ما رواه السبكي وأطالَ فيه عن الجوينيِّ، وعن تلميذِ الحارثِ ابنِ مسروقٍ، وما فَسَّرِ به تَرَدُّدَ الجوينى بين: الاستحسانِ، والتَعَقُّبِ، ودفاعَ السبكي عنهما. في طبقات الشافعية للسبكي ٢/ ٢٧٥،ص ٢٨١، ص ٣٤١.

(٢) - وفى ذلك يقولُ ابنُ تيمية: "وقد يُرادُ بالعقلِ: نفسُ الغريزة، التي في الإنسانِ التي بها يميزُ، ويقصدُ المنافعَ دونَ المضارِّ، كمَا قالَ أحمدُ بنُ حنبل، والحارثُ المحاسبى وغيرُهما: إنّ العقلَ غريزةٌ، وهذه الغريزةُ ثابتةٌ عند جمهورِ العقلاءِ، كمَا أنّ في العينِ قوةً بها يُبصرُ، وفى اللسانِ قوةٌ بها يذوقُ، وفى الجلدِ قوةٌ بها يلمسُ عند جمهورِ العقلاءِ". مجموع فتاوى الشيخ أحمد ابن تيمية -جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصى النجدى الحنبلى ج ٩/ ٢٨٧ (كتاب المنطق) ط(٩) ١٣٩٩هـ.

(٣) - المرادُ به: في أكثرِ الناسِ، وليس مطلقَ الخلقِ؛ لأنّ العقلَ خاصِيَّـةٌ اختصَّ اللهُ تعالى بها الإنسانَ دونَ سائرِ المخلوقاتِ الأخرى.

صَفْوَةُ الروحِ، أو المعرِفةُ، فيَرِدُّ القولَ بأنه: الروحُ بقوله:]"ولا نقولُ به؛ إذْ لم نجِدْ فيهِ كتَابًا مسْطوراً، ولا حَدِيثًا مَأثوراً :[ثم يَرُدُّ القولَ بأنه: المعرفة بقوله:] :وهو [أى العقلُ]عندَنا: أنَّهُ غريزةٌ، والمَعرِفةُ عنه تكونُ"[1]، فالعقلُ عندَ المحاسبيِّ هو: نَفْسُ الغَرِيزَةُ، وليس هو المعرفَةُ؛ لأنَّه وسيلةُ المعرفةِ، فبِهِ تُدْرَكُ العلومُ والمعَارِفُ، وليس هو صَفْوَة الروحِ أيضًا؛ لأنَّه لمْ يَرِدْ مَا يشْهَدُ له من كِتابَ ولا سُنَّة.

١٢- سُمِّيَ القَلْبُ قَلْباً لتَقَلُّبِه.

رُوِى السُلَمِيُّ عن المُحاسِبيّ ما يشيرُ إلى ذلك عندَ تفسيرِ قولِ اللهِ تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"(ق/ ٣٧): فقدْ جاءَ في تفسيرِ السلميّ قوله: "سَمِعتُ الحسينَ بنَ يحيىَ يقولُ: سمعتُ ابنَ عيونِ الضرابِ يقولُ: قالَ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ: سُمِّيَ القَلْبُ قَلْبًا؛ لأنَّهُ يتَقَلَّبُ في الأمورِ، وإنَّمَا جُعِلَ مصدرُه الصدر؛ لأنَّه تَصْدُرُ منهُ العُلومُ".[2] فالحارثُ المحاسبيُّ يرى أنّ القلبَ سُمِيَ بذلك لتَقَلُّبِهِ بين الأحوَالِ وفى الأمُورِ.

١٣- طَاعَةُ كلِّ شيءٍ باعتِبَارِ حَالِه.

يروى السُلَمِيُّ لنا رأيًا للمحاسبِيِّ عند تفسير قوله تعالى: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ".(هود/ ٩٠)"قال الشبلِيُّ: ما مِن حَرفٍ من الحروفِ إلَّا وهو يسبحُ اللهَ تعالى بلسانٍ، ويذكرُهُ بلغةٍ، لكلِّ لسانٍ منها حروفٌ، ولكلِّ حرفٍ لسانٌ، وهو سِرُّ اللهِ تعالى في خلقِهِ...، وقال حارثُ المحاسبِيُّ: إنّ اللهَ تعالى لمّا خلقَ الأحرفَ، دعَاهَا إلى الطاعَةِ، فأجَابَتْ على حَسَبِ مَا جَلَّاهَا الخِطَاب، وألبَسَهَا"[3]. فكلُ المخلوقاتِ مطيعةٌ لله تعالى مُسَبِّحَةٌ له بلسانِ حالِها أو مقالِها مما لا يعلمُ حقيقتَه إلا اللهُ تعالى، والكلُ على هذا مُطيعٌ لله مُسبِّحٌ له جلّ وعَلا، كلٌ بحسَبِ حالِهِ، ممّا هو سِرٌّ من أسرارِ اللهِ تعالى في خلقِه.

---

(١) - شرف العقل وماهيته للحارث بن أسد المحاسبى(ت ٢٤٣ه) ص ١٧ : ٢٠- تحقيق أ/ مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١) ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م.

(٢)- تفسير السلمى ٢/ ٢٧١.

(٣) - تفسير السلمى ج١/ ٣٢٥.

١٤- **الحِكْمَةُ منَ الآياتِ التي يُرْسِلُهَا اللهُ تعَالى لعبَادِه.**

قال السُلّمِيُّ فيما يرويهِ عن الحارثِ عندَ تفسيرِ قولِهِ تعالى: "وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا"(الإسراء/٥٩)، قال حَارِثُ المحاسبيُّ: الآياتُ التي يُظهِرُهَا اللهُ في عبادِهِ رحمةً على السَابقين، وتنبيهًا للمُقتَصِدين، وتخويفًا للعَاصين، وسُئلَ أحمدُ بنُ حنبلٍ عن هذِه الآيةِ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا؟ فقالَ: مَوعِظَةً، وتَحذِيراً، *والآياتُ هي*: الشَبَابُ، والكُهُولَةُ، والشَيبَةُ، وتَقَلُّبُ الأحْوَالِ بِكَ؛ لعَلّكَ تعتبرُ بحالٍ أو تَتَّعِظُ في وقتٍ".[١] فهو هنا يبينُ أنّ الحِكمَةَ من تَقَلُّبِ الأحوالِ بالعبادِ إمّا: الرحمةُ للسابقين بالخيراتِ، أو التنبيهُ للمقتصدين؛ ليجتهدوا فيها، أو التَخويفُ للعَاصِين؛ ليرجِعوا ويثوبوا، ولكلٍّ واحِدَةٍ من الثلاثَةِ نصيبُهَا من العبادِ، كلُّ إنسان بحَسَبِ حالِه بين: العِصيانِ، والاقتصادِ، والسَبْق الى الخيرات[٢]-بعون الله تعالى. فيكون هذا سببًا لإصلاح حالِ العبادِ في طريقِ السيرِ إلى الله تعالى أو والرجوعِ إليه تعالى.

١٥- **معنى الصَبرِ عندَ المُحَاسِبِيّ.**

نجدُ السلمي يروى لنا معنى الصبرِ عندَ المحاسبِيِّ عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (الروم/٦٠)، قال رويم: الصبرُ تركُ الشكوى، قال أبو عثمان: من تحقّقَ بما وعدَ اللهُ الصابرين من جميلِ الثوابِ وحسنِ العطاءِ هانَ عليهِ الصبرُ على المكارِهِ، ولم يؤلمْهُ المقامُ عليهَا، سَمِعْتُ أبا الحسين الفَارِسِيّ يقولُ: سمعتُ عباسَ بنَ عاصمٍ يقولُ سمعتُ الجنيدَ -رحمَةُ اللهِ عليه- يقولُ: سمعتُ حارِثَ المُحاسِبيَّ-رحمَةُ اللهِ عليه- يقولُ: الصبرُ: التَهَدُّفُ لسِهَامِ البَلَاء[٣]، ويؤكدُ ذلك ما جاءَ عنه أيضًا في تفسيرِ قولِه تعالى: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ"(الزمر/١٠)

---

(١)- تفسير السلمي حقائق التفسير ١/ ١٩٠.

(٢) - ونلحظ أن تفسيره هذا يدور حول معنى قوله تعالى: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"(فاطر/ ٣٢).فكل صنف من الناس تكون آيتُه لحكمة يعلمها الله تعالى بحسب حاله.

(٣)- تفسير السلمي ٢/ ١٢٨.

"قالَ حارثُ المحاسبيُّ: الصبرُ: التَهَدُّفُ لسهامِ البَلاءِ".[1] فالصبرُ عندِهُ أعلى من مجرَّدِ التَحَمُّلِ، بلْ هو التَعَرُّضُ لسِهَامِ البَلاءِ، ولا يتصورُ ذلك إلا ممنْ وطَّنَ نفسَه على تحمُّلِ المَكَارِهِ؛ لما يعلمُ من وعدِ اللهِ الحقِ الذي وعدَ به تعالى الصابرين بقوله تعالى: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. ونسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإن قدر الابتلاء؛ فنساله أن يلهمنا الصبر والرضى.

(١)-تفسير السلمى ٢/ ٢٩٣.

الخاتمة

أشير هنا الى أهم النتائج التي لا يَسَعُنِى تركُها، مع ما يمكن أنْ يستنبطَه القارئُ من خلال مطالعته للبحث، وهى:

١- أنّ العصر الذي عاش فيه الحارثُ المحاسبى اتَّسَمَ من الناحية العلمية: بالازدهار الفكري، الذي أثمَر صِراعًا بين الفِرق الكلاميّة وبخاصة بين السلف والمعتزلة ، فنشَطوا للردّ عليهم، ومقاومة المدِّ الاعتزالي، وكان للمدرسة الكُلابِيّة بأعلامها الثلاثة: (ابن كُلَّاب، والقلانسي، والمُحَاسِبىّ) أثرٌ كبيرٌ في مقاومة أصحاب البدع والزنادقة، ونجده من الناحية السياسية: عهدَ تنافسٍ على السُلطة، أنتَجَتْ تغيراتٍ سياسيةً، وقَلاقِل داخلية في البَلاط العباسي.

٢- تعددت ألقابُ وأوصافُ ونِسْبَةُ المحاسبى لدى المؤرخين له ما بين: الزَّاهِدُ، والعَارِفُ، وشَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ، ولُقِّبَ بإمامِ الطريقة، وأستاذِ السائرين، ويُنْسَب الحارثُ الى شيئين: أحدهما: معنوى هو محَاسبة النفس؛ فاشتُهِرَ بالمُحَاسِبى، والثانى: أمرٌ حِسِّىٌّ، فنُسبُ الى بلدته بغداد.

٣- أنّ الحارث المحاسبى وُلِد بالبصرة، ونشأَ بها، ولا يتَأتَّى لنا تحديدُ المدَّة التي قضاها بها، ثم ارتحل الى بغداد، واشتهر فيها وعَلَا نجمُهُ وشاعَ صِيتُهُ، واستمرَّ بها حتى توفِي فيها، ويبدو أنه ذهب إلي بغداد في سنٍ مبكرة، وطابَ له المُقَامُ فيها...، ولم تشر المصادرُ إلى تحديدِ تاريخِ ميلادِه، بيد أنّ الملابسات ترشد الى أنه ولد -تقريبًا- في العقد السابع من القرن الثانى الهجرى.

٤- أنّ حياة الحارث الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئًا، ويمكننا أنْ نستنتج من البحث: إنه قضى طفولته في شئ من اليُسْرِ والرَخَاءِ؛ ذلك أنَّ والدَه حينما توفى ترك ثروةً تُقدَّر بسبعين ألف درهم.

٥- اتَّسمَ المحاسبىُّ بقوة الشخصية والعزيمة القوية الماضية، وأن للمحاسبى عدداً من الشيوخ، ومن أهم مشايخ الحارث: الإمام الشافعي، وابن كلاب، وهما أبرز شيوخه، وإلا فللمحاسبى عدّة مشايخ في شتى العلوم والمعارف، ولم يمكننى الجزمُ بصحبة المحاسبى للشافعى أو نفيها، لأنَّها شهدت خلافًا بين المؤرخين، ولو حصل عندهم جزمٌ بأحد الطرفين لارتَفَعَ الخلافُ، والجدلُ

فيها، لكن أقلُّ ما يُقالُ فيها: إنَّها صُحْبَةٌ بالمعنى العَام أى أنَّه عَاصَرَهُ، وكان في طبقة الآخِذين عن الإمام الشافعي، وأنه اختار مذهبه. وهذا القدر كاف في إثبات العلاقة بينهما. وكان له عددٌ من التلاميذ الذين تخرجوا به أشهرهم الجنيد، ونجد الجنيد لا يكتفى بمجرد الرواية عن الحارث، بل يُجِلُّهُ ويقدِّره ويترَحَّم عليه، وغالبًا ما يروى عنه في معرض الاعتداد بكلامه والقبول له وتأييده، وتدل بعض الروايات على: التزاور بينهما، وقدوم الحارث الى الجنيد، خروجهما معًا، ثم الجلوس والمؤانسة، والتَحَاوُر والنقاش العلمي بينهما، وعلى تَلَقِّى الجنيد من الحارث إجاباتٍ لما يسأل عنه، أنَّ هذه المحاورات كانت تُعتبَرُ تمهيداً لبعض مؤلفات المحاسبى، على أن بعض كتب الحارث لم تصل إلينا، بل فُقِدَتْ.

٦- توجد عدة روايات في تعليل تركِ المحاسبى ميراثَه من أبيه والحاصل منها ثلاثةُ أقوالٍ: أولها: أن سبب تركه هو اختلاف المذهب: لأن والده كان معتزليًا -كما ذكر البغدادي ومن رضى قوله- أو لأنه كان واقفيًا، والثانى: أن تركه كان ورعًا منه ومبالغة منه في طلب الحلال والبعد عن الشبهات. والثالث: أنه تركه زهداً في الدنيا عزوفًا عن متاعها، ليتفرغ للعبادة ولا ينشغل بحطام الدنيا عن الدين، وإثاراً للآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

٧- أنّه فيما يتعلق بمذهب المحاسبى في الأصول والفروع فهو من جملة السلف الذين اهتم بعضهم بعلم الكلام، وهؤلاء الجماعة يطلق عليهم: الكلابية، وأشهرهم ثلاثة: ابن كُلَّاب، والمحاسبى، والقلانسي، وهؤلاء أسبق من الأشعري والأشعرية، ثم ظهرت فرقةُ الأشعرية تقتفى أثرَ السلف، وتنهج نهج الكلابية. وهو في الفقه: شافعي المذهب بلا شك، والدليلُ على ذلك أنّ المؤرخين ترجموا له ضمن طبقات الشافعية.

٨- نجد المصادر لم تذكر شيئًا عن والد الحارث غير أنَّه كان معتزليًا، أو واقِفِيًّا، والفرق بين كونه معتزليًا وواقفيًا خارجيًا كبير، وأنَّه كان من الأثرياء، لأنَّه ترك ثروةً كبيرة.

٩- ذكرَتْ كتبُ التراجم عباراتٍ كثيرةً في فضل المحاسبى والثناء عليه؛ مما يدل على منزلته العالية،

وأثره البالغ، فقد أثنى العلماءُ عليه قديمًا وحديثًا، وعباراتُهم تدل دلالة واضحة على علو منزلته، فهو من العلماء البارزين في شتى العلوم والمعارف، لم يقف عند فن واحد، بل توغل في أكثرها، وهو قدوةُ القاصدين والمريدين، جَمَعَ بين علمِ الظَاهِر والبَاطِن،

١٠-أنّ المحاسبى اقتَحَمَ غِمَارَ علمِ الكلام، وخَاضَ لُجَّتَه، ودخلَ في بعضِ مسائله، وسَاهَم فيها بارآءٍ مُعتَبَرَة كانت امتِدَاداً لمنهج السلف، وزَاداً لمَنْ جاءَ بعدَه، وأنّه توجدُ أدلةٌ متعددةٌ على الأثَرِ الفكري المُمْتَد للحارث المحاسبى فيمن جاء بعده من العلماء.

١١-قد كان للحارث عنايةٌ بالسُنَّة الشريفة، وعناية بكتابة الحديث، وروايته، وإن كان مقِّلاً فيه، فليس كأرباب الحديث، لكن على وجه الإجمال كانت له عناية به، وهو ثِقَّةٌ في روايته، فلم يَجْرَحْهُ أحدٌ من علماء الجَرْح والتَعْدِيل، وروى عمَّن سبقَه، وروى عنه جماعةٌ من أتباعه.

١٢-أنّه يمكن تفسير ما رُوِى عن الإمام أحمد تجاه المحاسبى بأحد ثلاثة وجوه: الأول: أنّ ذلك كان توجيهًا خاصًا للسائلِ بما يناسبُ حالَه، فهو لا يطيق مسْلَكَ الصوفيةِ الشديد الوَعِر، والثانى: كراهية استخدام الجدل الفلسفي حتى لو كان للرَدِّ على المعتزلة بنفس أسلوبهم، والثالث: النهى عن الدخول والجدل في المسائل الكلاميَّة ما لم تكن هناك ضرورة مُلِحَّةٌ، لِمّا ورد في ذمِّ الجدل وما جرَّه من نوائب ونكبات على المسلمين.

١٣-أنه يمكن تفسير ما رُوِى عن الإمام أبي زُرْعَةَ الرازي أيضًا تجاه المحاسبى: بأنَّ الحكمَ ليس على إطلاقه، بل هو مُقَيَّدٌ بالفترة الزمنية المتقدمة فأبو زرعة توفى سنة (٢٦٤هـ) وهو زمن القرون الأولى التي شُهِدَ لها بالفضل والخَيرِيَّة، فالفرقُ إنّما هو فرقٌ بين الأجيال المتقدمة والمتأخرة. ومدى التَأَسُّفِ على ما صار إليه حالُ المتأخرين مقارنةً بأحوال المتقدمين؛ ولذا ختم الذهبي كلامَه بقوله:"نسأل اللهَ العفوَ والمسامحةَ آمين" أو يمكن تفسيره: أنّ مناط الكلام على التفريق بين الصحيح وغيره من السنة، وأن عدم التمييز بينهما، والانشغال بغير الأثر قد يكون سببًا في انتشار البدع والضلال والبعد عن الحق، فالمناط هنا على العناية بالسنة، والإنكار لكل ما يشغل عنها.

١٤-أنّ من كرامات الحارث التي أكرمها الله تعالى بها: أنّ الله تعالى جعل له عَلامَةً يعرِف بها الطعام الذي فيه شُبْهَةٌ، فلا تقبله نفسُه؛ فيمتنع عن أكله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

١٥-يقررُ الحارثُ أنّ معرفةَ اللهِ تعالى ضرورةٌ عقلية تُنال بالتَفَكُّرِ في الشواهد والأدلة، ويجعل من فوائد إرسال الرسل -عليهم السلام- استثارة تلك المعرفة العقلية الكامنة في البشر.

١٦-ويؤكدُ المحاسبيُّ على أنّه لا يجوزُ العفوُ عن المشركين، ولا يجوزُ الاستغفارُ لهم، ولا يجوزُ تَوَهُّمُ دخولُهم في عموم المشيئة الإلهية للمغفرة لعباده، ولا في استغفار الملائكة لمن في الأرض، فكل هذا خاصٌ، ووارد حق الموحدين دون المشركين.

١٧-الأدلة عند المحاسبى متعددة فنجده قد استخدم أكثر الأدلة -المعروفة الآن- بأنواعها المتعددة من: القرآن، والسنة، والإجماع، وكذا يستدل بالأنماط العقلية المختلفة، فنجده يستندُ الى القياسِ في الاستدلالِ، ويستدل بقياس الغَائبِ على الشاهِدِ، ويُعْتَبرُ المُمَهِدُ لمَنْ جاءَ بعدَه في الاستدَلالَ به، ويستندُ كذلك على الضرورةِ العقليَّةِ، ويستدل بالواقِعِ المُشَاهَد في الحياة.

١٨-أنَّ الحارثُ المحاسبى قد سبقَ مَنْ جاء بعده في الاعتداد بقيمة العقل وبيان منزلته، إذ يشير إلى العلاقة التكَامُلِيَّة بين العقل والنقل، فيرى أنَّ الرسُل -عليهم السلام- يؤكدون ما يهتدى العقل إليه ويقررونه، ولا يعارضونه، وأنَّ من مهمَّةِ الرسُل -عليهم السلام- تنبيهَ العقول واستثارة التفكير لدى المخاطبين، والحث على إعمال العقول في كل ما تراه العيون من الأنفس والآفاق، وأنَّ من ضمن الحِكَم المتعددة من إرسال الرسل: إقامة الحُجَّة وقطع المَحَجَّة كما صرح به الكتاب العزيز، وأن الرسُل -عليهم السلام- بشرٌ اختارَهم الله واصطفَاهم، فهم لا يعلمون من الغيب شيئًا مطلقًا -سواء في ذلك ما يتعلق بالله تعالى كصفاته وأسمائه...، أو ما يتعلق بأمور المكلفين لا في الدنيا ولا في الآخرة- فلا علمَ لهم إلا ما أَعْلَمَهُم اللهُ تعالى بالوحى إليهم.

١٩-أنّ المحاسبى رغم تأكيده على قيمة العقل وتعويله عليه، واعتداده به أيَما اعتداد؛ نجده رغم يستدل بنصوص متعددة من القرآن الكريم فهو العمدة في الاستدلال، وعليه فهو يُزاوِجُ بين العقل والنقل،

ويجمع بين المنقولِ والمعقولِ على السواء، بحيث يعتبر المؤسس لمنهج الوَسَطِيَّة والاعتدال في الاستدلال بهما، دون التقديم المطلق لأحدهما على الآخر، فلا إفراط ولا تفريط في منهج الحارث، فقد أسَس بذلك منهجًا قويمًا لمن جاء بعده من العلماء.

٢٠-أن العقل عند المحاسبى هو: نفس الغريزة، ولا نعرفه بغير أثره الظاهر في أفعال الإنسان التي بها يحصل التمييز بها بين ما ينفعه مما يضره، وليس هو المعرفة؛ لأن العقل وسيلة المعرفه؛ فبه تُدْرَكُ العلومُ والمعارف، وليس هو صَفْوَة الروح؛ لأنه لم يَرِد ما يشهد له من كتاب ولا سنة.

٢١- كان من جملة الآراء التي أشار إليها المحاسبي: إثبات بعض أمور المعاد من: اليوم الأخر والبعث، والحساب، والجزاء والثواب والعقاب...، وإثبات صفة الكلام لله تعالى، وأنه صفة ذاتية، وأنَّ كلامَه هو ما أوحى به إلى عباده بواسطة الرسُل -عليهم السلام- وكذا الإشارة إلى أن الله تعالى يحب ويكرة، ويرضى ويسخط، ويثيب ويكرم الطائع، ويعاقب ويهين العاصي.

٢٢-وجدنا الحارث المحاسبى أحيانًا يتأولُ بعض الآيات، كما فعل في تلك النصوص التي جاءت فيها لفظةُ: (في) ويرى أنها: ليست على ظاهرِ معنَاهَا المفيدِ للظرفيَّةِ، غير أنه أيضًا قد يأخُذُ بعضَ الآياتِ على ظواهرها، ونجد ذلك واضِحًا عنده في تفسيرِ المرادِ بالعروجِ والصعودِ، والسببُ في الجمع بين الأمرين: من الأخذ بالظاهر، أو الميل إلى التأويل -بحسب الحال المُقتَضِى لأحدهما- هو: الحرصُ على التنزيه المطلق، والتقديس التام لله تعالى.

٢٣-كلام الحارث يشير الى أنَّ حكمةَ الله تعالى من الخلق، وأنّ علة الخلق تتلخص في التكليف بمعرفة الله تعالى، وطاعته جلَّ وعلا، فلم يخلقهم لاحتياجه لمعونتهم، ولا لاحتياجه إلى طاعتهم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو يصرح بنفي احتياج الله تعالى الى خلقة، ويشير إلى ما يترتب على التكليف من الجزاء، ويشير الى أنّ معرفةَ الله تعالى عقليةٌ، تحصل بالأدلة العقلية الدالة عليه تعالى.

٢٤-أن المحاسبى وصاحبيه -ابن كُلَّاب، والقلانسي- يثبتون العلوَ والاستواءَ، ويشيرُ ابنُ تيمية الى الفرق بين العلو والاستواء: بأنَّ العلو من الصفات العقلية، وأنّ فيه خلافًا، فيرى الكُلَّابِيَّةُ أن العلوَ

عقلي بمعنى أنه من الصفات التي تُعْلَمُ بالعقل، وقال الأشعري هو: خبري سمعي، وأمّا الاستواءُ: فهو خبري عند الجميع، فلا يُعْلَمُ إلا بالدليل السمعي.

٢٥-والحارث المحاسبى ممن يثبتُ صفاتِ الأفعال حقيقة، وليس كمجرد تعلق القدرة والإرادة بالأشياء، ويرى أنَّ الشيء الحادث راجعٌ لصفةٍ أزليةٍ قديمةٍ، وهى -أي الصفة القديمة- غيرُ الفعل الواقع من الله تعالى بها، فهو -أي الفعل-غير المخلوق به، وكلاهما -أي الصفة والفعل- مُتَمَايِّزٌ عن خلق المفعول به الحادث الواقع بها في العَالَم، فهنا ثلاثةُ أشياء متمايزة: صِفةٌ أزليةٌ قديمةٌ، وفِعلٌ، ومفعولٌ به حادثٌ واقعٌ بأثرهما. وكلها متغايرة.

وأخيراً: نوصى: بضرورة العناية بدراسة المدرسة الكلابية وآرائها، وكذا العناية بدراسة المتأخرين من أعلامها كما قدمتُ ثلاثة دراسات للمتقدمين منهم، وكنت أفكر في البحث عن علمين من أعلام الكلابية هما: أبو على الثقفى (ت ٣٢٨هـ)، وأبو بكر الصبغى (ت ٣٤٢هـ) لكنى خشيت ألّا أعثر على آراء تكفى لإعطاء صورة واضحة عن آرائهم الكلامية، لا سيما وأن القدر الذي وجدته عن القلانسي من الآراء الكلامية كان قليلاً نسبيًا إذا قارناه بصاحبيه: ابن كلاب، والحارث المحاسبى.

****

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه، اللهم لك الحمد حمداً يوافى نعمك ويدافع نقمك ويكافئ مزيدك،

وأشهد ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

فهرس المراجع

١- الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه، للإمام محمد أبو زهرة -نشر دار الفكر العربي ط(٢) ١٩٧٨.

٢- ابن كُلّاب حياتُه وآراؤه الكلامية د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجاني - بحث منشور بمجلة -الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية- وهي حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر عدد (٤١) ج ٢من ص ١٢٨١ : ١٤٠٣ -إصدار ديسمبر ٢٠٢١م.

٣- الإجماع وأثره في علم الكلام د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجاني رسالة دكتوراة من كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر - بمكتبة الكلية، وبالمكتبة المركزية لجامعة الأزهر سنة ٢٠٠٥م.

٤- أدب النفوس وهو مطبوع مع كتاب بدء من أناب الى الله كلاهما للحارث المحاسبى تحقيق/ مجدي فتحي السيد - نشر دار السلام للطباعة والنشر بالأزهر بالقاهرة ط (١)١٤١٢/ ١٩٩١.

٥- أستاذ السائرين الحارث الحاسبى د/ عبد الحليم محمود - نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة - بدون معلومات أخرى-وفى نهايته تاريخ ايداعه بدار الكتب المصرية سنة ١٩٧٣م.

٦- إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين تأليف كمال الدين أحمد بن حسين بن سنان الدين البياضى زادة الرومى الحنفى البسنوى (ت ١٠٩٧هـ) تحقيق أحمد فريد المزيدى-نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (١) ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. وطبعة اخرى عتيقة بتحقيق د/ يوسف عبد الرازق وتصدير الشيخ زاهد الكوثرى- نشر مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ط(١) ١٣٦٨/ ١٩٤٩م.

٧- الأقوال التي أخذها البغدادي عن ابن الراوندى د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجانى بحث منشور بمجلة كلية دار العلوم جامعة المنيا عدد (١٧) سنة ١٤٢٨ه/ ٢٠٠٧م.

٨- إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا) تأليف محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (المتوفي: ٦٢٩هـ) تحقيق د/ عبد القيوم عبد ربِّ النبي - نشر جامعة أم القرى - مكة المكرمة ط(١)١٤١٠هـ.

٩- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء -مالك والشافعي وأبى حنيفة- وذكر عيون أخبارهم وأخبار أصحابهم للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النميرى القرطبى ت ٤٦٣هـ مطبعة

القاهرة بالجمالية بالقاهرة- نشر مكتبة القُدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٠ه.
١٠-بدء من أناب الى الله تعالى ويليه كتاب أدب النفوس كلاهما للحارث المحاسبى تحقيق/ مجدى فتحى السيد - نشر دار السلام للطباعة والنشر بالأزهر بالقاهرة ط (١)١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
١١-البداية والنهاية للحافظ أبي الفدا إسماعيل ابن كثير(٧٧٤هـ)- نشر دار المنار بالقاهرة ط(١) ١٤٢١/ ٢٠٠١.
١٢-بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء لأبى الحسن الروحى تحقيق عماد أحمد هلال، ومحمد حسنى عبد الرحمن، سعاد محمد عبد الستار، بإشراف د/ أيمن فؤاد سيد - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٤/ ٢٠٠٣.
١٣-تاريخ -بغداد- مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قاطنيها العلماء من غير أهلها ومريديها (المشهور بتاريخ بغداد) للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن على بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) تحقيق د/ بشَّار عوّاد، وترجمة الحارث فيه تقع تحت رقم:(٤٢٨٣)- نشر دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط (١) ١٤٢٢/ ٢٠٠١م. ومعه ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، ونسخة أخرى لتاريخ بغداد غير محققة وتقع ترجمة الحارث فيها رقم:(٤٣٣٠)- نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
١٤-تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ) نشر دار ابن حزم بيروت لبنان ط(١)١٤٤٢/ ٢٠٠٣م.
١٥-تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية مَنْ حَلَّها من الأماثل أو اجْتَازَ بنواحيها من وارِدِيها وأهلها للإمام العالم الحافظ أبي القاسم على بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت٥٧١هـ) تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري - نشر دار الفكر بيروت لبنان -١٤١٥/ ١٩٩٥م.
١٦-تبصرة الأدلة في أصول الدين لأبى المعين ميمون بن محمد النسفى تحقيق حسين آتاى-نشر رئاسة الشئون الدينية للجمهورية التركية رقم(٣٩٣)سلسلة كتب المصادر رقم(٢٣)أنقرة تركيا سنة ١٩٩٣م.
١٧-تفسير السُلمي المسمى: (حقائق التفسير) لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (ت٤١٢هـ) -تحقيق سيد عمران-نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان:١٤٢١/ ٢٠٠١.

١٨-تقريب التهذيب تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت ٨٥٢هـ) تحقيق محمد عوامة -نشر دار الرشيد سوريا- حلب (٣) ١٤١١/ ١٩٩١.

١٩-تهذيب الكمال في أسماء الرجال: لجمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢هـ) تحقيق : د/ بشار عواد معروف- نشر : مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ – ١٩٨٠. و ط(٢) ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

٢٠-تبيين كذب المفترى فيما نُسب الى الإمام أبي الحسن الأشعري لأبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقى(ت٥٧١هـ) -طبع بعناية حسام الدين المقدسى- نشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان ١٣٩٩/ ١٩٧٩.

٢١-حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ) نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (١) ١٤٠٩/ ١٩٨٨.

٢٢-درء تعارض العقل والنقل للإمام ابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم - نشر دار الكنوز الأدبية الرياض السعودية ط ١٣٩١هـ.

٢٣-دول الإسلام للحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي (ت ٧٤٦هـ)- نشر مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت لبنان ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

٢٤-الدَلِيلُ اللُّغَوِيُّ عِندَ الـمُتَكَلِمِينَ دِراسَة نَظَرِيَّة وتَطْبِيقِيَّة أ.د/ خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجانى موسي - بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر ببنى سويف- العدد (٥) سنة ٢٠١٣/ ١٤٣٤هـ.

٢٥-الذات والصفات بين الإمام المحاسبى والهروى دراسة مقارنة رسالة ماجستير للباحث رمضان عنتر رمضان- بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامهة المنيا شاركت في مناقشتها في يناير ٢٠٢١م.

٢٦-الرسالة القشيرية في علم التصوف للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى (ت٤٦٥هـ) تحقيق د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف -نشر مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ط(١) ١٤٠٩/ ١٩٨٩. ونسخة ثانية عليها هوامش من شرح الشيخ زكريا الأنصارى نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة

٢٧-رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدّة -نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب دار السلام للنشر والطباعة والتوزيع ط (٢) ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢٨-السلوك في طبقات العلماء والملوك لبهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي توفى قبل سنة ٧٣٢هـ تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي - نشر مكتبة الإرشاد صنعاء اليمن - سنة ١٩٩٥م.
٢٩-سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(ت٧٤٨هـ) بتحقيق صالح السَّمر إشراف شعيب الأرناؤط- نشر مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط(١)١٤٠٣/ ١٩٨٣م.
٣٠-الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه للإمام محمد أبو زهرة - الناشر: دار الفكر العربي ط (٢) ١٩٧٨ م.
٣١-شرح العقيدة الأصفهانية لأبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية تحقيق الشيخ حسنين محمد مخلوف دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ط ١٩٦٦ .
٣٢-شرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية للطحاوى شرح الإمام على بن محمد بن أبي العز الحنفى (ت ٧٩٢هـ) تحقيق د/ أحمد محمد شاكر -مكتبة الرياض الحديثة بالسعودية.
٣٣-شرف العقل وماهيته للحارث بن أسد المحاسبى(ت ٢٤٣ه) حققه وطبعه مع كتاب الإمام الغزالى أ/ مصطفى عبد القادر عطا - نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١)١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م.
٣٤-صفة الصفوة لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج تحقيق محمود فاخوري، د/ محمد رواس قلعجي نشر دار المعرفة – بيروت ط (٢) ١٣٩٩/ ١٩٧٩ .
٣٥-ضحى الإسلام د/ أحمد أمين - نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة ١٩٩٩ .
٣٦-طبقات الحنابلة لابى الحسين ابن أبي يعلى: محمد بن محمد (ت٥٢٦هـ) تحقيق محمد حامد الفقي نشر دار المعرفة – بيروت لبنان.
٣٧-طبقات الشافعية الكبرى الإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي تحقيق د/ محمود محمد الطناحى، د/ عبد الفتاح محمد الحلو - نشر دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة (٢) ١٤١٣هـ.
٣٨-طبقات الشافعية لابن القاضى شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقى الدين بن قاضي شهبة الدمشقى (٨٥١هـ) تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان- نشر عالم الكتب -

بيروت ط (١) ١٤٠٧هـ.
٣٩-طبقات الشافعيين لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفي: ٧٧٤هـ)، تحقيق: د/ أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب -نشر مكتبة الثقافة الدينية سنه: ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م
٤٠-طبقات الصوفية الكبرى المسمى بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار للعارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعرانى -نشر مكتبة محمد على صبيح بالقاهرة بدون تاريخ.
٤١-طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى تحقيق مصطفى عبد القادر عطا- نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط(١) ١٤١٩/ ١٩٩٨.
٤٢-طبقات الفقهاء الشافعية للإمام تقى الدين أبي عمر عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ)،ويليه الذيل على طبقات ابن الصلاح للعلامة النووي: محيى الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي(ت ٦٧٦هـ) تحقيق محيي الدين علي نجيب نشر دار البشائر الإسلامية - بيروت لبنان ط(١) ١٤٣١/ ١٩٩٢.
٤٣- العارف بالله بشر بن الحارث الحافى (المحدِّث الثقة)د/ عبد الحليم محمود -الدار المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة ط(٢) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م،ونسخة أخرى نشر دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٤م.
٤٤-الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم للبغدادى أبي منصور عبد القاهر بن طاهر (ت٣٢٩ه) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد مؤسسة الحلبى بالقاهرة بدون تاريخ.
٤٥-الفهرست لابن النديم: أبي الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفي: ٣٨٠هـ) (المقالة الخامسة من الفن الخامس في اسماء المصنفين من الزهاد والمتصوفة) - تحقيق إبراهيم رمضان نشر دار المعرفة بيروت – لبنان ط(٢) ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
٤٦-فهم القران للحارث ومعه كتاب العقل كلاهما المحاسبى (ت ١٤٣ه) تحقيق د/ حسين القوتلى -رسالة دكتوراة بكلية الآداب جامعة بيروت لبنان- نشر دار الفكر للطباعة والنشر ط(١) ١٣٩١/ ١٩٧١، وطبعة أخرى جديدة لفهم القران فقط بتحقيق د/ خالد رمضان أحمد رسالة - دكتوراة أيضًا في القران الكريم وعلومه - من مطبوعات قسم الدراسات القرآنية-كلية التربية- جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية ط (١) ١٤٣٦/ ٢٠١٥م بدون ناشر.
٤٧-القلانسي حياته وآراؤه الكلامية د خلف عبد الحكيم خلف حسين الفرجانى موسي بحث منشور

بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة جامعة الأزهر عدد ٢٠١٥م.
٤٨-كتاب المسائل في الزهد للحارث المحاسبى - تحقيق مصطفى عبد القادر عطا- مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ط(١) ١٩٩٢.
٤٩-كتاب الوفيات لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير: بابن قنفد القسنطينى (ت٨٠٩هـ)ـ تحقيق عادل نويهض-نشر دار الإقامة الجديدة ط(٤) سنة ١٤٠٣/ ١٩٨٣- بيروت لبنان.
٥٠- لسان الميزان تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ) تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ت١٤١٧هـ- نشر مكتبة المطبوعات الاسلامية ط(١) ١٤٢٣/ ٢٠٠٢م.
٥١-مجموع فتاوى الشيخ احمد ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصى النجدى الحنبلى المجلد التاسع (كتاب المنطق) ط(٩) ١٣٩٩هـ.
٥٢-المسائل في الزهد للحارث تحقيق مصطفى عبد القادر عطا مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ط(١) ١٩٩٢م.
٥٣-معجم المؤلفين تأليف عمر رضا كحالة-ناشر مؤسسة الرسالة ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م.
٥٤-الملل والنحل لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى تحقيق صديق جميل العطار - نشر دار الفكر بيروت لبنان ط (١)١٤١٩/ ١٩٩٩.
٥٥-منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية: أبي العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم -تحقيق د/ محمد رشاد سالم من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية- بإشراف إدارة الثقافة والنشر بالجامعة- ط(٢) ١٤١١/ ١٩٩١.
٥٦- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلِّين للإمام الأشعري: أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري (٣٣٠هـ) تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد -طبعة خاصة بورثة المحقق- دون ناشر.
٥٧-ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق على البجاوي -تصوير ونشر دار المعرفة- بيروت لبنان.
٥٨-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تأليف أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس-دار صادر بيروت لبنان ط ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

فهرس الموضوعات

الملخص ١٠٠٦

المقدمة ١٠٠٨

الفَصْلُ الأَوَّل: حياةُ الحارثِ الـمُحَاسِبِيّ ١٠١٠

أولاً: العصرُ الذي عاشَ فيه الحارثُ المحاسبيّ. ١٠١٠

ثانيًا: اسمُه وكُنيتُه ولَقبُه ونِسْبَتُه: ١٠١٦

ثالثًا: مولدُه ونشأتُهُ وشخصيَّتُه ١٠١٩

رابعًا: شيوخُه وتلاميذُه. ١٠٢١

خامسًا: عِفَّةُ الحارثِ المحاسبيّ وورَعُه ١٠٣٠

سادسًا: مذهبه ١٠٣٣

سَابِعًا: أقوالُ العُلَمَاءِ فيه ١٠٣٥

ثامنًا: الأثر الفكري للحارث المحاسبي ١٠٣٧

تَاسِعًا: روايةُ الحارثِ للحَديثِ النبوي. ١٠٣٩

عَاشِراً: موقفُ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل من المُحاسِبيِّ. ١٠٤٠

حادي عَشَر: موقِفُ أبي زُرْعَةَ الرازي من المحاسبي ١٠٤٤

ثاني عشر: كرامات الحارث المحاسبي. ١٠٤٧

ثالث عشر: موقف المحاسبي من أهل البدع ١٠٤٨

رابع عشر: مؤلفات المحاسبي ١٠٤٩

خامس عشر: وفاة الحارث المحاسبي ١٠٥٢

الفصل الثاني: آراء الحَارِث المُحَاسِبيّ الكَلَامِيَّة ١٠٥٦

أولاً: تمهيدٌ في: تَنَاوُلِ بعض العلماء المحْدَثين لآراءِ الحارثِ المحَاسَبِيّ ١٠٥٨

١- إثبَاتُ وُجودِ اللهِ تعَالى ١٠٥٨

٢- إثباتُ الوَحدَانِيَّةِ للهِ تعالى..... ١٠٥٨
٣- تَنْزِيهُ اللهِ تعَالى عن المَكَانِيَّة..... ١٠٦٠
المبحثُ الأولُ: آرَاؤُه في مَسَائِـل الإلَـهِيَّـات..... ١٠٦١
١- مَعْرِفَةُ وجود اللهِ تَعَالى فِطْرِيَّةٌ..... ١٠٦١
٢- العَقْلُ وسِيلةٌ لمَعرِفَةِ اللهِ تعالى..... ١٠٦١
٣- ذاتُهُ تعالى ليستْ مَحَلاً للحَوَادِث..... ١٠٦٢
4- نَفْيُ قِيَامِ الأفعَالِ الاختِيارِيَّةِ بذاتِهِ تَعَالى..... ١٠٦٤
٥- لا يُضَافُ الى اللهِ تعالى غَيرُ مَا أضَافَهُ لنَفسِهِ..... ١٠٦٥
6- إثبَاتُ بعضِ الصِفَاتِ إجْمَالاً..... ١٠٦٥
7- جواز إثبات صفات المعاني بالعقل..... ١٠٦٦
٨- إثباتُ علمِ اللهِ تعالى وعُمُومِهِ..... ١٠٦٧
٩- إثباتُ قِـدَمِ عِلْمِ اللهِ تعالى..... ١٠٦٨
10- إثباتُ قِدَمِ إرادةِ اللهِ تعالى..... ١٠٦٨
11- كَلامُ اللهِ تعَالى صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ..... ١٠٦٩
12- إثباتُ الصِفَاتِ الخَبَـرِيَّةِ مع التَنْزِيهِ..... ١٠٧٠
١٣- إثبَاتُ صِفَاتِ الأفْعَالِ للهِ تعَالى..... ١٠٧١
14- عُلُوُّ اللهِ تعالى على خَلْقِه مَعلُومٌ بالفِطْرَة..... ١٠٧٢
15- إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعَالى وتَمَايُزُهُ عن الاستِوَاء..... ١٠٧٢
١٦- إثبَاتُ الفَوْقِيَّةِ مع التَنْـزِيه..... ١٠٧٣
١٧- بَيَانُ مُنْتَـهَى الصُعُود..... ١٠٧٤
١٨- تأويلُ (في) المُوْهِمَةِ للظَرْفِيَّـة..... ١٠٧٥
١٩- تَأويلُ الـمَعِيَّـةِ بالعِلْم..... ١٠٧٥

٢٠- تَأوِيلُ القُرْب..... ١٠٧٦
٢١- تَأوِيلُ مَا يُوْهِمُ الحُلولَ والظَرْفِيَّة والتَعَدُّدَ..... ١٠٧٧
22- وجُوبُ الإيمَانِ بالقَضَاءِ والقَدَر..... ١٠٧٩
المبحث الثاني: آراؤهُ في مَسَائِلِ النُبُوات والسَمْعِيَّات..... ١٠٧٩
1- الحِكْمَةُ من إرسَالِ الرُسُلِ عليهم السلام..... ١٠٧٩
٢- وجُوبُ عِصْمَةِ الأنبيَاءِ عليهم السَلام..... ١٠٨١
٣ إثباتُ التَكْلِيفِ والمَعَادِ والجَزَاءِ..... ١٠٨١
٤ تَقْسيمُ الذُنوبِ الى كَبَائرَ وصَغَائِر..... ١٠٨٢
٥- اعتِبَارُ الرِيَاءِ مِنَ الكَبَائر..... ١٠٨٢
٦- صَاحِبُ الكَبيرَةِ مُؤمِنٌ عَاصٍ..... ١٠٨٣
٧- وجوبُ التَوبَةِ..... ١٠٨٣
٨- زيادَةُ دلالَةِ معنَى الأوْبَةِ على التَوبَة..... ١٠٨٤
9- لا يجوزُ العفوُ عن المُشرِكين..... ١٠٨٤
10- تَخْصِيصُ عُمُومِ مَشيئَةِ المَغْفِرَة..... ١٠٨٥
11- لا يجوزُ الاستِغْفَارُ للمُشرِكين..... ١٠٨٦
12- جوازُ العَفوِ عن بعضِ عُصَاةِ المُؤمِنين..... ١٠٨٧
١٣- القولُ بعدمِ نَجَاةِ فِرعَون..... ١٠٨٨
14- الإيمان يَزِيدُ ويُنْقُص..... ١٠٨٩
15- صِحَّةُ إيمَانِ المُقَلِّدِ الجَازِم..... ١٠٨٩
١٦- الإيمَانُ مَخْلوقٌ أم غَيرُ مَخْلوق؟..... ١٠٩١
17- الميثاق حق..... ١٠٩١
المبحث الثالث: آرَاؤهُ في مسَائل عَامَّةٍ مُتَفَرِّقَة..... ١٠٩٢

التحذيرُ من الجَدَلِ في الدين والقُرآن. ١٠٩٢
2- المُتَشَابِه لا يعلَمُهُ إلَّا اللهُ. **١٠٩٣**
٣- العقائد لا يجوز فيها النسخ. ١٠٩٤
٤- الأخْبَارُ لا يَجوزُ فيها النَسْخُ. ١٠٩٥
٥- الأمرُ بالمعروفِ والنَهْيُ عن المُنْكَر. ١٠٩٦
6- الأدلة عند الحارث المحاسبى ١٠٩٦
٧- الاستِدْلَالُ بالوَاقِعِ المُشَاهَد. ١٠٩٦
٨- الاستدلالُ بالضَرُوْرَةِ العَقْلِيَّة. ١٠٩٧
٩- الاستِدلَالُ بقياسِ الغَائبِ على الشَاهِد. ١٠٩٧
١٠- الاستِدلالُ بمُقْتَضَى اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ ١٠٩٨
11- العقلُ غريزةٌ تُدْرَكُ بها العُلُومُ. ١٠٩٩
١٢- سُمِّيَ القَلْبُ قَلْبًا لتَقَلُّبِه. ١١٠٠
١٣- طَاعَةُ كلِّ شيء باعتِبَارِ حَالِه. ١١٠٠
14- الحِكْمَةُ منَ الآياتِ التي يُرْسِلُهَا اللهُ تعَالى لعبَادِه. ١١٠١
١٥- معنى الصَبرِ عندَ المُحَاسِبِيّ. ١١٠١
الخاتمة.. ..... ١١٠٣
فهرس المراجع **١١٠٩**
فهرس الموضوعات **١١١٥**